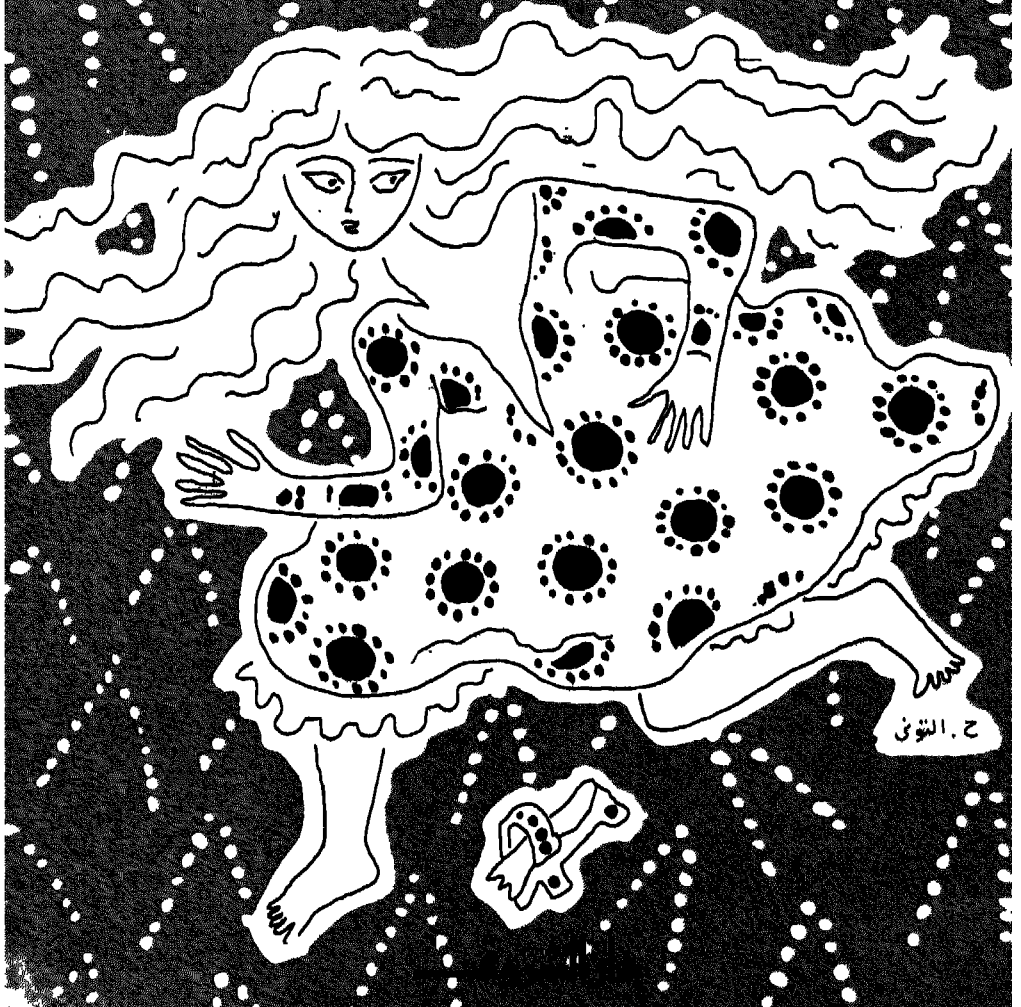


ليلي العثمان

فحسب حصار موتها



قَهْدَةُ تَخَارِوَتْهَا

مَجْمُوعَةُ الْقُرْآنِ

الطبعة الأولى
١٩٨٧-١٤٠٧ هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

الناشر: دار الشروق - هاتف: ٧٧٤٨٩ - ٧٧٤٨٨ - برقية شروق - تلصق: SHOROK UN
بيروت: ص. ب. ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٣١٣ - برقية: دابوق - تلصق: SHOROK 20175 L.B
SHOROK INTERNATIONAL 310/310 REGENT STREET, LONDON W1, UK. TEL. 037 2743/4, TELEX SHOROK 257706

فَتْحِيَّةٌ تَخْتَارُ مَوْتَهَا

مجموعۃ قصص

ليلى العثمان

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فتحية تختار موتها

« - إلى الكاتب الفلسطيني . »

رشاد أبو شاور -

من خلف الزجاج كنت أراقبها .. كان الصبح يطل بوجهه باردًا لا يزال .
والشمس تتزلق في السماء جدائل شقراء تغرس نفسها في قلب البحر لتستحم ،
وتثير الدفء رويدًا .. رويدًا .. حتى يصل إليها .. تحس به فترتخي أعضاؤها
التي تبيست إثر ليلة باردة .

تبدأ حركتها .. أرجلها تتحرك بمشقة .. تتشابك معًا لحظة كأنها بذلك تشد
أزر بعضها بعضًا ، وتتباعد لحظة أخرى .. تصير كأيدٍ غرقى تصرخ في آذان
بحارة منهكين .. يمزون ولا يلتفتون .. فتهدأ . تتجمع على نفسها بذبول يتحول
شيئًا .. فشيئًا إلى استسلام ما تكاد تعتاد عليه حتى تعود إلى حركتها العصية
محاولة التخلص من المأزق الذي وضعها فيه هزة هوائية مفاجئة ، وتنتظر أن تأتي
هزة أخرى لتعيدها إلى وضعها الطبيعي ، مستلقية على ظهرها الأملس ،
لا تكف عن المحاولة ، وأنا .. عينان من خلف الزجاج تراقبنا .. وضعها
يؤلنى .. وضع مشلول لا يدعها تتحرك خطوة واحدة ، وقد تبقى على حالها
زمنًا بينا الأزمان تأتي .. وتسافر .. وتصافح أوجه النهارات المشرقة . من يرضى

بهذا الأسر؟؟ من منا لا يتوق إلى الحرية في كل لحظة؟؟ فكيف لهذه البائسة
أن تسترد حريتها التي افتقدتها؟؟

أشفقت عليها ..

توسلت إليه وهو بجانبى يفرك كفيه الباردتين لتدفأ :

- أرجوك .. اعد لها لترتاح .. أو اقلها لترينحي ..

زفر:

- مالك ولها !! إنها مجرد خنفساء .

أبتلعت غضبي .. هكذا إذن ينظر إلى تلك المعذبة ..

هو لا يدرى أنها بنظري ليست خنفساء ، وبإحساسى الداخلى هي ليست
حشرة .. إنها مخلوقة أخرى تحاول في ذلك ، وضعف لا تعترف بها .. لكن
وضعها يشهد على ذلك .. تمنى لو تمتد يد .. أية يد ... قدم .. أية قدم ...
لتحركها .. فتعتدل ويفتك الأسر الذى جمدها طوال الليل .

صوتى المبحوح يكاد لا يصله .. كيف يدرى أننى أبتلع حزنى ؟ . هو فى
النهاية رجل ككل الرجال ... لا يهمه أن تكون المرأة - الحشرة - مقلوبة .. أو
معدولة ..

المهم أن تكون من وضع يناسب مزاجه .. ويريح رجولته .. ويرضى
غروره .. هو يرى الحشرة كما هي « خنفساء » بينا أراها أنا - والسهم غارز فى
الصدر - أراها ... فتحية .

* * *

رفضت فتحية أن تتحرك من فراشها .. صرخت فيها أختي الكبرى :
- قومي .. تحركي

لكن فتحية التي تحب النوم .. والاستكانة في وضع واحد لا تريد أن تتحرك ... ظلت خائرة في فراشها .. سحبت غطاءها المنقش . وتأفقت مرتين قبل أن تجيب :

- لن أتحرك ... ولن أذهب ... إنني أكره وجهها .
كنت الصغيرة .. رفض لساني الذي يجرسونه دائماً أن يتعاطف مع فتحية .. أن يعلن هو الآخر عن كرهه لذلك الوجه .. أنا أيضاً لا أرغب في الذهاب لكنني ملزمة بأن أتخذ موقف الباقيات .

قالت فتحية كلماتها ... ثم أغمضت جفניה لتعود بوهما إلى الحلم الذي استفاقت منه ... وظننت أن أختي الكبرى قد استسلمت لموقف فتحية . لكنها عادت تهزها بعنف :

- قومي ... سيأتي أبي بعد قليل وسنغادر إلى هناك . انتصبت فتحية في فراشها ، ثار شرر في عينيها رغم قبحه كان يعبر عن موقف تمنيت لو أمارسه :
- لن أذهب .. وأبي لن يجبرني .. فلماذا أنت تُلحّين؟؟ عادت تتكوم في فراشها غاضبة ...

هنا .. جاء صوت أختي الثالثة تلاطف أختي الكبيرة :

- دعيتها .. لا تفرضي عليها ...
لكن هذا اللطف أثار أختي فصرخت :

- لا .. لن أتركها ... لا يجب أن تنفرد بقرارها .. ولا برأيها .. لا يجب أن تفصل عنا .. يجب أن تذهب .
- دنت أختي الثالثة من فتحة هزتها بجانان :
- فتحة ... يجب أن تذهبي معنا ..
- أكره الذهاب .. وأكره أن أراها ...
- كلنا نكره أن نراها .. ولكن يجب أن نفعل .. علينا أن نواجه أمنا .. سنقول لها كوني حنوناً يا أمي ..
- لنحبك .. ونأتيك راضيات .
- هزئت فتحة بما سمعت وقالت :
- لا يجب محاورة الأم .. هي تفعل ما تريد وعلينا أن نطيع .
- الحوار قد يفيد يا فتحة . قومي معنا ... يجب أن تسمع أمنا صوتنا .. يجب أن تعرف بأننا لا نرضى بهذه القسوة .
--
- قومي يا فتحة ...
- كلا .. لن أذهب .
- إذن .. تختارين القرد برأيك .. حسن .. سنتركك وسنذهب ..
- وقالت أختي الكبرى :
- نعم .. سنذهب ... سنواجه المصير وحدنا ..
- قالت فتحة :
- ستكنم أصواتكن هي وزوجها .. وستفرقن .
- أخرستها أختي الكبيرة :

.. لن تستطيع .. سنكون صلبات .. وليس مثلك جبانة .
ثم التفتت إليّ وإلى أختي الثالثة :
.. هيا .. أعرف مسبقاً ما الذى يتظرنا هناك .

* * *

هناك فى بيت آخر يتظر وجه أمى المستطيل تتلاعب ضفيريّتان ثخيتان على
كتفيا المرمرين يداعبها رجل آخر غير أبى .. وعلى صدرها تلنصق طفلة أخرى
ترضع اللبن الذى حرمتى منه ... لو ذهبنا الآن ... وفتحت الباب ... فلن
ييهما أن تمضن بالشوق وجوهنا .. لن يرقص قلبها فرحاً ... بل سترقص عيناها
لتعد وجوهنا :

واحدة ...

اثنان ...

ثلاثاً ...

وأين الرابعة ؟؟

* * *

ارتعشت ...
بكيت ... لمحت أختى الكبرى دموعى .. فبكت مشفقة على طفولتى ..
نسير نحو باب الغرفة .. صوت فتحية المتكومة فى الفراش يتبعنا :

.. أرجوكن .. لو سألت عنى قلنَ لها إننى مُت .

* * *

للموت صوت لا يسمعه إلا من يتمناه .. كان الموت بالنسبة لنا .. هو الحياة المريحة .. هذا الخبز بين الأطراف أرقح الطفولة : أجهض فرحها أكثر من مرة .. قتت في العظام نخاعها ... وأحترقت الأعصاب .. والشمس كانت حارقة ذلك اليوم - يوم الانفصال - كانت تعلن أن للموت أسباباً وللحياة كذلك .. فهل يجب أن نعيشها مفتتين؟؟ أو كاملي النمو والوعي؟؟؟

* * *

وعى فتحية لم يكن يسبق وعينا .. كنا نتلمس الجرح .. نضغط عليه لأننا لا نريد لكمية الألم أن تموت .. نريدها أن تنمو معنا ... تشحننا بالطاقة التي نستطيع معها أن نرفض تلك الأمومة الزائفة ونصرخ يوماً في وجه أمي ...

لكنها اليوم ... تريد أن تنفصل ... أن تبقى وتزج بنا نحن الثلاث بأتون الغضب وكأننا نحن اللواتي أردنا هذا الانفصال .. هناك .. ينتظرنا غضب أمي ، وشرها الذي لن يراه أبي .. بل يحس به ... يقف أمامه مرغماً .. سيقف عند رأس الشارع ليودعنا .. ولا يجرؤ أن يقترب ... ولو فعل لخرجت إليه مهتاجة كما فعلت - جدتي - من قبل .. يومها ضربت أبي أمام أعيننا .. وبكى .. ليس تالماً بل حزناً على نفسه .. وخجلاً مئاً .. منذ ذلك اليوم ابتعد .. يوقف سيارته بعيداً .. وترجل منها كما ترجل خيول تعلم أنها ستباع .. أو ستعدهم .. أو ستسجن في اسطبل لا تفوح منه رائحة إلا بفار ما تفوح منه رائحة براكين الغضب .

يظل أبي واقفاً بجانبه بانتظار أن تقطع أرجلنا الطفلة المسافة .. وما أن نصل إلى الباب حتى نلوح له ويلوح لنا مودعاً .. وفي كل مرة كان يخشى أن يكون

وداعه لنا نهائيًا .. لكنّ المساء يأتي .. ونخرج خائبات نقطع نفس الشارع
الضيق الذي جثناه والشمس تضيء ترابه .. نخرج منه والظلام دامس يعلن عن
ظلمة نفوسنا .. عن حزننا .. بؤسنا الذي عايناه نهارًا كاملاً في بيت أمي ..
نقطع الشارع بأسرع ممّا دخلناه .. قلوبنا ترفرف كالعصافير .. نهتف :
نعود إليك يا أبي .. احملنا على جناح قلبك .. طربنا .. ونرجوك .. لا نعدّ
بنا ثانية إلى هنا .

* * *

هنا .. تتكوم الخنفساء ...

وهناك فتحة كانت تتكوم ... ترفض أن تزرعها أختي من مكانها ... وفي
داخلها تمني أختي - كما تمني - أن نزرع في الفراش مثل فتحة ونعلن لأبي
أننا جميعًا نرفض الذهاب .. لكنها بذلك الوعي الطفولي .. تدرك أنه لا بد من
الحركة .. لا بد أن نواجه شرّ أمي ... أن نعتاد عليه .. حتى نفهمه .. وتعلم
منه .. ثم نواجهها في نفس السلاح .. لا بأس لو تضرّر جسدنا الطرى ..
لا بأس لو مرّقتنا قسوتها التي لا يقف في وجهها أي سد حتى الزوج الجديد ..
يتفرج فقط .. فلا مهمة له سوى إغداق المال .. وإرضاء الجسد البصّ الذي
تفوح رائحة عطره .. وشرّه .

* * *

ذلك الشركان ينتظرنا .. تمامًا كما ينتظر الليل هذه الخنفساء لتجمد أطرافها
فيه .. بانتظار صبح جديد تنفس فيه ... وفتحة كذلك .. تريد أن تنفس

اللحظة ولا يهتما أن تظل مكانها معطلة .. لكنها لم تعطلنا .. حملنا أنفسنا نحن
الثلاثة إلى سيارة أبي ... كان قلبنا الراجف لا يستقر . وحين لامست أقدامنا
تراب الشارع ارتعدنا .. أحس أبي تلك الرعدة .. مسكت أختي الكبيرة ..
همس لها :

- إذا سألت أمك عن فتحة قولي لها إنها شرت اليوم - ملح أمريكي -
أحسست بطعم الملح ذاك في في .. اهتاجت مصارينى قوقأت كما تقوقئ
الدجاجة ويتسارع ثمرها المدفون في داخلها فتبيض ... أمسكت ببطنى أهرسه
وأصرخ :

- آه .. بطنى .. بطنى ...

حضن أبي وجهى .. يعلم ما الذى يصارع المصارين . الخوف .
- لا تخافى .. يجب ألا تخافى .. كونى شجاعة .

* * *

أى شجاعة !!!

حتى السماء كانت كدرة .. فاقدة لصفائها .. عابسة كأن شيئاً عزيزاً عليها
فى الأرض يموت .. وشهدت أتربة الشارع ضربات القلب السريع .. سجلت
آلاف الحكايا التي شغلت الذهن ونحن نقطع الشارع .
ماكاد الباب يفتح .. حتى تناثرت نظرات أمى :

- أين أختكم ؟؟

- لم تأت ...

قالتها أحتى الكبيرة بذل .. وانكسار شق قلبي . وهوت يد أمى البضة على
صدغها .. رن الكف على خدى .

- وحدكن !! ... لماذا لم تأت معكن ؟؟

- شربت ملح أمريكانى ...

وصرخت أمى :

- حتى لو شربت كل ملح الأمريكان ... وسحبنا إلى الداخل ... ارتدت

عباءتها الحريرية .. نظرت إلينا :

- سأذهب .. وأحضرها ... وسترى !!

خرجت كالبقرة الهاشجة ... وبقينا نرتعش .

* * *

الخنفساء ترتعش ... الظهر يرمى غلالته الندية على الأرض ... وعلى البحر
المواجه لى .. وعلى الشرفة .. والغيم يتسلل بين لحظة .. وأخرى .. إلى وجه
الشمس يصفعها ما كادت .. حتى بكت ... قطرات المطر تساقطت متسابقة
تعشق على الارتطام والموت على رأس الحشائش الذائبة وجدا .. سالت المياه ..
وصلت إلى الخنفساء ..

أحست برودة الماء .. انكشمت أكثر ... أكثر ...

الوقت يمضى بطيئاً ... هى معطلة ترتعش .. ترتعش ..

تذكرنى بذلك الارتعاش الذى عشناه .

* * *

شمس الظهيرة حارقة ... حوش البيت - بيت أمى - نظيف لامع ..
توسطه شجرة خضراء كبيرة بنت أمى حولها حوضاً مربعاً من الطابوق ...
وحرصت ترابه بنباتات صغيرة تتحمل الجوع ... والعطش ... وأمى ذكية
تعرف كيف تختار النباتات القنوعة التي لا تأكل من خير الشجرة الكبيرة ..
ولا يرتفع رأسها ... وهى لا تسقى مساحات التراب كلها ... فقط ... تحت
الجذع الكبير حتى لا تولد نباتات أخرى طفيلية تتسلق الجذع .. وتنخره .. إنها
تكره أن ينافس الشجرة أى نبات قوى ... وما هذه الأشياء المزروعة إلا لتزين
ما حول الشجرة .

فى الليوان الذى يرتفع ثلاث درجات عن أرض الحوش كنا نجلس
متلاصقات فوق المطارح الوثيرة والمساند المطرزة .. نتلاصق رغم حرارة
الظهيرة ... كانت أجسادنا ترتعد ... زوج أمى يتنقل من الشجرة إلى آخر
الحوش حيث تُربطُ عنزة وهو متوترٌ يحمل عصاه .. وكلما ازداد توتره رفع عصاه
وهوى على ظهر العنزة .. فأمأت المسكينة دون حراك .. ونحن نشاهد المنظر
نحس لمس العصا على ظهورنا .. القلق يفترسنا ... يفترس زوج أمى ...
تأخرت ... ماذا تفعل هناك؟؟ ماذا تكيل لأبى؟؟ ولزوجته الطيبة ؟ ! و ...
لفتحية؟؟

* * *

اعترفت فتحية بعد ذلك .. أن الوقت الضائع الذى انتظرنا فيه كانت أمى
تفضيه معها .. أجلستها فى حضنها .. سكبت حناناً وهمياً عليها ... قبلتها ..
أخرجت لها من تحت العباءة كيساً مليئاً بالحلوى .. بالبسكويت ... أعطتها لعبة

تمت فتحة أن تملك مثلها .. فأغرثها الهدايا ... والأطياب .. سحرها الحنان
 المفاجئ .. ونحن نرتعد متلاصقات ... محرومات من كل ذلك .. خائفات ..
 بينما فتحة تصدق ! وتخدع .. وتقوم مسرعة ترتدى ملابسها وترافق أمي ...
 وقالت لنا بعد ذلك إن أمي أكدت لها بأن كثيرًا من الحلوى والهدايا قد حصلنا
 عليه قبل أن تأتي لتأخذها .. ركضت فتحة .. وضعت يدها بكل ثقة بيد
 أمي ... وانطلقنا إلينا .

* * *

مرتعدات لانزال كنا .. لكن وجه فتحة حين أقبل مستبشراً ودّعتنا
 الرعدة .. تصورنا أن مولودًا جديدًا انبعث في قلب أمي ليلم شملنا معًا ..
 فتقافزنا نستقبلها نشمّ الفرح الآتي معها .. نمزجه بفرحنا الذي انساب فجأة مع
 العرق المحبوس داخل مسامنا .. وحين توسطنا الحوش قريبًا من الشجرة ..
 صرخت أمي صرخة داوية جفلت لها قلوبنا

خلعت عباءتها .. ألقتها كمن يلقي النار واشتغلت . أخذت تنهال علينا
 ضربًا .. مزقت التصاقنا .. تفرق شملنا .. وقعنا .. اصطدمت جباهنا بجمرة
 الأرض فتكومنا ... اللعاب ، الحلوى ، الهدايا تناثرت .. وزبد أمي يتناثر من
 فمها مرًا .. فتحة تحاول أن تمسك بقطعة من الحلوى .. لكن قدم أمي
 ترفسها .. فتستلقي على ظهرها .. وتحاول بحركات يديها .. وقدمها أن تمنع
 ضربات قدم أمي ... صراع لا أنساه .. كصرع تلك الخنفساء التي يعذبني
 وجودها .

كانت فتحة ملقاةً بانتظار أن تمتد لها يد واحدة منا .. فتعلها .. لتقوم ..

وتحاول .. لكننا كنا نشحن أنفسنا بالقوة .. علينا أن نتكاتف .. لا وقت للتفكير
في فتحة التي اختارت أن تفرد بقرارها ... وكأنها بذلك قد اختارت موتها
تحت قدم أُمى المسعورة .. تنشل حركتها .. ونحن بعيدات عن موطئ القدم
لا نزال .. وعلينا أن نتصرف .

* * *

- عليك أن تتصرف
همست له .. طبعته قبلة على وجنته التي دفتت ..
- أرجوك .. اخرج .. وتصرف .
تساءل :
- في هذا البرد الشديد؟
وانهمر توستلى :
- أرجوك .. إما أن تعدلها لترتاح ... أو ... اقتلها . وابتسم :
- لم لا تنسى وجودها؟؟
- إنها أمامى .. تضايقتنى بمحاولاتها الفاشلة .
ربت على يدي :
- ليست كل المحاولات فاشلة .. بعض المحاولات جيدة ... وممتجة ..
لنتركها ... قد تفلح في أن تنقذ نفسها .. من يدري !!
تدفق دمع إلى حلقي . همست :
- أنت لا تدري ! حين تنقلب الخنفساء يصعب عليها أن تستعيد وضعها ..
علينا أن نساعدنا .

يومها .. حاولنا أن نساعد فتحة التي كانت تنسحق على ظهرها تحت قدم
 أمى الثائرة .. حتى اقتربت من الشجرة .. تمسكت بجذعها تمنى لو تخلعه من
 مكانه .. وتحمى فى ترابه .. اهتزت الشجرة .. وتساقطت حبات « الكنار »
 الحمراء المستوية .. لو كنا فى بيت أبى نملك مثل تلك الشجرة لتراكضنا معه
 نجمع الثمار .. نأكلها .. نتقاذف بالنواة بفرح .. ونشيع سعادة .. لكن فتحة
 أمامنا .. تعذب ! لا طعم للثمر ... ولا للفرح .. حتى حين أقبل زوج أمى
 ممسكاً بعصاه .. فتوسمنا أن يخضع جنونها تحت لسع العصا .. لكنه لم ينس فى
 تلك اللحظة أن فتحة هى بذرة رجل آخر سبقه وفض بكارة المرأة التى هى
 ملكه الآن .. يناولها العصا .. تشد عليها بعنف .. تنال على جسد فتحة المتكوم
 تحت الشجرة وهو يراقب منتصباً بغرورا

* * *

انتصب أمامى ...
 كنت أجلس على طرف السرير بانتظار أن يفعل شيئاً ...
 يده امتدت لفتح باب الشرفة .. فتحه .. هب هواء مدهش صفع باب
 الغرفة فانغلق ... خرج ... مشى خطوة .. خطوتين ... خطوة أخرى ويكون
 قد وصل إلى الخنفساء .. هل سيعدها ؟؟ هل سيقتلها ؟؟ ماذا سيفعل
 بالضبط ؟؟

قبل أن يخرج سألتنى :

– لو عدلتها .. أو قتلتها .. هل سترتاحين ؟؟
 لم أشأ لذهنى أن يسافر بى إلى أبعد من حدود الشرفة .. عدت أتابعه ..

رفع قدمه . قبل أن يهوى عليها كنت أصرخ :
- انتظر .

* * *

لم تنتظر ..

حين انهالت العصا على جسد فتحية رغم أن ذلك كان بسبب عنادها ..
رفضنا أن يجرح الجسد أو يموت .. حاولنا أن نمد أيدينا إليها .. لكن الأيدي
لم تصل .. كان يجب أن نفعل أكثر من امتداد اليد لكن ثورة أمي .. والشرر
المتطاير .. أجفل الحركة منا .. كنا ثلاثة .. وفتحية واحدة ... لا نريد أن نموت
معاً .. علينا أن نصمد .. أن نبقى .. أن نبتعد ... لنقوى ونعود يوماً إلى أمنا
أكثر صلابة في العود ، وفي الرأي ... وفي الفعل ... عندها لن تقاوم ..
ولن تسليخ من جلودنا إصرارها ...
وابتعدنا ...

* * *

ابتعدت قدمه عن الخنفساء .. استدار نحوي ، كان أنفه قد احمر قليلاً من
البرد الذي فاجأ وجهه ، تجمدت خطواته .. حضنته .. رجوته :
- أرجوك .. لا تقتلها .
تأثرت ضحكته .. حضنتي .. - أشهد أنني أحب هذا الرجل -
فهمني .. قال :
- أعرف بماذا تفكرين .

أدخلني إلى الغرفة الدافئة حضن رأسي إلى صدره ، عابث شعري المتطاير
يُعدّل خصلاته :

- لا تحزني .. ما كنتن مشغولات عن موت فتحية ... كانت الريح العاصفة
أقوى .

- لم أنس المنظر ... رغم أنني كبرت

- كبر الوعي ...

أمسكت بيده .. انزوى إصبعي داخل كفه وبللت قبضه بنهر من الدموع .

* * *

ويبقى الصوت حياً

تقول الحكاية : إن ذلك الصوت الحزين الباكي كان ينساب عبر نسيم الليل في مكان ما . ليطرق الآذان .. ينسكب فيها انسكاب الماء الحارق على الجسد .. يأتي موجعاً .. مترعاً بالألم .. فيه مزيج من الشكوى .. والابتهاال . ويُؤنِّدُ بجدَّةٍ قد تتفجَّرُ يوماً فتصبح جنوناً يشق بكارة الحى الغافى دائماً على حكايات صغيرة .

هذا الصوت مّوال بدأ يُسَمَعُ فى الليل ، يفوح صداه مثقلاً بروائح الألم . وفى النهار رغم الضوضاء والصخب ، يُحسُّه كل من يتحرك وكأنه داخل أذنه .. يشقها . يتزعه من أشغاله اليومية ، مابين اللحظة والأخرى ، كأنه يذكره بأن الصوت ما يزال .

أصبح هذا المّوال يقلق الصمت .. ويفجّر التساؤلات وهو حزين شاك لا يفتأ يرّدّد :

«قلبي على طويرِ حَضْرُ
شالوه من إيدى

ماشافته العين لا
 وما رضعه دويدى^(١)
 عيني عاها ملحها
 والنار على خديدي
 أصرخ وجمر في الحشا
 وينه ثرى وليدى .

* * *

يوم الجمعة ينفذ شمل المصلين . يخرجون من المسجد كل يحمل مسبحة ،
 تسبقهم آيات الحمد والشكر ، يتوزعون بين الدكاكين القريبة ثم يتفرقون
 متوجهين كل إلى بيته . يبرون عبر الأزقة الطينية حيث تبدو النساء الكادحات
 عائدات من «ساحة الصفاة»^(٢) بعد نهار شاق ، واحدة تحمل قفص الدجاج
 على رأسها . وتدب في سيرها ، وشجار الدجاجات متواصل في القفص ،
 وبعض الريش يتطاير حتى يلتصق «ببوشيتها»^(٣) الكالحة . وأخرى تحمل سلة
 مهترئة فارغة إلا من بعض قشور بيض تكسر وتلون بلون الصفار الذي تجمد
 عليه . وأم خضر - يعرفها أهل الحى - تدسّ بقشيتها المليئة بمجاجيات النسوة ،
 وغالبًا ما يكون حجم البقشة في طريق العودة أصغر مما كان عليه حين خرجت
 في الصباح . وبائعة الباجلاء تهف على وجهها وقد اختارت ظلًا تحت الجدار .
 ولم يكن الطريق يخلو من همهمات .. وسلامات .. وأحاديث عابرة بين النسوة .
 وقد توقف إحداهن أم خضر لتفك بقشيتها وسط الشارع لتتفرّج على ما لديها من
 حاجات .

ويتراكم الأطفال بين النسوة والرجال . يتطاير غبار الطريق تحت أقدامهم . ويشوطن الحجارة التي قد تنفلت وتسقط في قدر الباجلاء ، فتثور بائعته وتسب ولا من يسمع .

والبنّيات الصغيرات على رؤوسهن تتربع « مطابق »^(٤) اللبن وهنّ قادمات من بيت أم علي . أو صرّرت الملابس الملونة لقادمات من بيت - أم عبّيدى - الخياطة ، وقد يتلاسنّ أحياناً مع بعض الصبية المهرجين .

* * *

تصب هذه الأفواج في الشارع الطويل ، ومنه تتوزع عبر الطرقات الدافئة الضيقة العابقة بروائح الطعام .. والكاز .. وبحار التراب .

وكل من يمر عبر تلك الطرقات كان الصوت يتهادى إليه .. وكثيرا ما شوهد الناس وهم يرفعون رؤوسهم باحثين عن المصدر الذي يصل منه إلى آذانهم ونوافذ بيوتهم ، فتعلو وجوههم دهشة وحيرة ! بينما السؤال يتوالى مع توالى الليالي والأيام : مَنْ صاحبة ذلك الصوت المتفجّر المأ بكلمات تؤكد نواح أم فقدت طفلها؟؟

* * *

لم يكن أحد ليعترف من الرجال حين يتحلّقون في المسجد بعد صلاة العشاء بأن لهذا الصوت وجوداً . كأن كل واحد منهم يحشى أن تُلصقَ به تهمة إيواء هذا النواح ، لكن الفضول التّسوّى كان يوقف سير الأقدام التي كثيراً ما تعارّأين تستقر ! فن كل فراغ يأتي الصوت ، ومن كل نافذة يخرج .. ومن

كل حجر ينطبق ، حتى أن بعضهن أخذ يُشيع أن « شيطاناً ما » يفعل هذا ..
وبعضهن يؤكد وجود امرأة نائمة يستمعن إلى غنائها حتى تبتلّ بوشياتهن بقطرات
الدمع .

تقول أم خضر وهى تفك بقشتها فى حوش أحد البيوت :

- كأن الصوت يأتى من بيت « فلان »

فتضرب أم سليمان على صدرها الذى يكاد قفصه أن يشق الثوب :

- وبه ! عنده زوجتان أراهما كل جمعة فى السوق .

وتحرك أم خضر أناملها بشكل مروحة ثم تستغفر ربها ثلاثاً وتهمس :

- وعنده بنت عانس ! الله أعلم .

فتصفق أم سليمان كفاً بكف :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. ولكن يا أم خضر هذه واحدة تنعى ولدها .

تتفصصُ أم خضر عبايتها وتهب واقفة :

- الشكوى لله . والله لا ندرى ما هى « السالفة » (القصة) .

وتخرج .. تترك السؤال مطروحاً : ترى ! هلى يأتى الصوت من بيت

فلان حقاً ؟؟ وتكاد المرأة تؤكد كلام أم الخضر لتريح خاطرها .. لكن

« عبدة »^(٥) « أبووزان » تهزقناعتها غير الكاملة حين تجيء فى المساء لتوصل

غرضاً ! جلست وتجشأت فانتثرت فى المكان رائحة فجعل . فهفت أم سليمان

بمهفتها وهى تزم شفيتها قرفاً :

- الله هداك يا « غروبة » كأنك أكلت عشر شدات من الفجل .

ابتسمت بخجل :

- والله صحيح يا أم سليمان .. رَعَيْتُ اليوم بالفجل دون أن أدري .. وأنا في طريقى ظهرًا من الدكان .. جاءني ذلك الصوت الشاكي .. تعوذت من الشيطان لأكمل طريقى ، لكن الشيطان جبّار ، وسوس لى ، من هنا الصوت ، فأمشى ، لكنه غاب حين وصلت وكأنه يأتي من الخلف ويهمس لى : من هنا .. فأتبعه .. وأحس بالجوع فأكل من الفجل . ظلت ساعة وأكثر حتى كاد يؤذّن العصر ولا فائدة ، الصوت يهرب إن لحقته .. ويلحقنى إن تركته .. و.... قاطعتها أم سليمان :

- ما الذى يجبرك ؟ غيرك فعل ما فعلت .. ولا أحد حتى الآن استطاع أن يعرف صاحبة الصوت أو مصدره .
فتفاخرت « غرّوبة » بصوت أبح :

- ويه .. يرحم والديك ، بدأ الناس يتهامون . وتفجّر فضول أم سليمان بفرح :

- بماذا ؟ من تهامس ؟؟

تهربت غرّوبة من ذكر أى اسم :

- الناس .. أقصد بعضهم .. وحتى عمى « أبو وزّان » سمعته يهمس أن الصوت يأتي من بيت « أبو شهاب » .

ثم نفضت ثوبها : والله أعلم .

قالت أم سليمان :

- تقولين « أبو وزّان » قال هذا ؟

وانتثر رعباً على وجه غرّوبة :

- الله يخليك يا أم سليمان . لا تقولى أننى نفوّت بهذا .. الله أعلم .. قلت
لعمتى حين لا متنى على تأخرى ونقص الفجل الذى معى أننى كنت أدور
وأبحث عن مصدر الصوت ، وأننى فعلاً لم أتعرف أو أقنع بمكان ..

- وماذا قالت ؟

- سحبت الفجل من يدي بغيظ . وعند الغداء سمعتها تحكى قصتي «لأبو
وزّان» ، وهنا همس بما قلته لك .

وعدها أم سليمان بالألا تنطق بما سمعت ، وحين تركت غرّوبة حوش الدار ،
كانت أم سليمان تقف وفي خيالها خواطر ، وصور ، وتهيّئات ، ثم مشت وهى
تهمس لنفسها : الشكوى لله الشكوى لله .. سأخبر «أبو سليمان» بما قاله «أبو
وزّان» .

* * *

صارت الأغنية تتردد على أفواه النسوة وهن يخبزن خبز الرقاق .. أو يغسلن
الشياب ، حتى وهن يفركن القدور السوداء بالرمل . وانتقلت العدوى إلى
الأطفال صبية وبنات ، فأخذن يرددنها ليل نهار رغم صراخ آبائهن فى
وجوههن ووجوه أمهاتهن اللواتى يرددن الأغنية .

وأصبح الأمر اعتيادياً .. المازون يسمعون ، يبحثون ، ثم يعجزون . والنسوة
بفضولهن يخترعن كل يوم حكاية ، والرجال يستغفرون ويهربون من مناقشة
الموضوع . حتى كاد الناس بعد ذلك أن يتجاهلوا الأمر .. أو ينسوه تماماً .

ذات صباح تعكّرت السماء بالغبار الأحمر . كان « ناصر » يمسك بيد أخته « وضحة » يقطعان الطريق من البيت إلى المدرسة . يوصلها أولاً ثم يكمل طريقه إلى مدرسته ليعود بعد الانصراف ثانية ، فيجدها تنتظره حاملة دفاترها ، وباليد الأخرى عصا من الحلاوة تمصّها بتلذذ ، تعطى له نصفها ما أن يصل .
في ذلك الصباح تأخرا في النوم .. لذا كان يجرّها من يدها راکضاً .

صرخت :

- لماذا تركض؟؟

- لقد تأخرنا ..

وتوسلت بصوت طفولي :

- لا تذهب من طريق « الحوطة » .. أريد أن أمرّ على الدكان .

كررت وهو يجرّها :

- لقد تأخرنا . اشترى الحلوى من قرب المدرسة . وبإصرار قالت :

- لا أريد .. لا أريد ..

صفعها صفعة خفيفة على وجهها .. وشدّها إلى الحوطة ، يقطعانها إلى الشارع الآخر .

كان ملح السماء الأحمر يزداد .. والهواء يتلاعب بأوراق الأكياس وبعض القاذورات ، والحوطة خالية تماماً إلا من عتزة تُركت لترعى بعض الورق والفضلات .. وهما يركضان رغم الحصى والعلب الفارغة . وفجأة هوت أخته منكفئة وصرخت :

- إنك تسحبني .

- لقد تأخرنا . هيا .. قومي .
وانحني ليرفعها عن الأرض ، فاصطدمت عيناه بكومة من التراب المبلل ..
وقد تبعثر بفعل سقوط أخته عليه رفعها .. نحّاها جانبًا ، نظر إليها وتساءل :
ما هذا ؟
فصرخت فيه كأنها تود الانتقام منه :
هيا .. لقد تأخرنا .
وضع سبابته على شفتيه :
هس . لترّ ما هذا أولاً .
فجأة عوى كلب ، فارتجفت الصغيرة ، لكنه هدأها .. وجلس بقربها ..
وأخذنا يتأملان الكومة الرطبة .. وتساءلت العيون الأربع .. تباعدت ..
وتلاصقت .. ثم عادت تعانق كومة التراب .
مدّ يده .. أخذ ينبش الكومة فصاحت أخته بصوت مرتجف :
لا .. لا يا ناصر .. يمكن أن تكون حيّة .
هدأها :
الحية لا تدفن نفسها هكذا .
ويده لا تزال تنبش .. وتنبش . حتى بدأت تغوص بعد ذلك . وإذ
اصطدمت بشيء ، التفت إلى أخته :
وجلدته .
شهقت :

- ما هو؟؟
- كنتز!
- فرحت :
- كنتز؟ ذهب يعنى !
- قال وهو يكمل رفع التراب :
- ذهب .. فلوس . المهم وجدنا كنتزا . وحفر .. ثم مد كلتا يديه الصغيرتين ، وانتشل صرة من القماش الأبيض . نفص عنها التراب ووضعها بينه وبين أخته :
- هيا .. فكى هذه الخيوط .
- وانفرجت الصرة عن مشهد جعلها يقفزان صارخين بصوت واحد : يمة .. يمة ..
- تثلجت أطرافها لبرهة .. والكلب الذى كان يعوى فى آخر الحوطة اقترب .. وصلب أذنين جرياوين ولسانه يلهث ، ثم اقترب . وأخذ يشم الصرة ويرفع رأسه نحوهما .. ثم يدور .. ويدور بينا عيناها تتقاذفان الخوف والسؤال .
- نطق أخيراً بكلمات عوجاء :
- هذا ولد .
- هزت رأسها بإيجاب ، ولمح دمة على خدّها تلوّت بلون « الطوز »^(٦) الأحمر .
- طرد الكلب بحركة من يده .. ولمّا لم يتحرك أمسك بعلبة فارغة ، قذفه بها .. ثم بعضا . لحقه حتى ابتعد قليلاً ، وعاد إلى أخته التى مدت أصابعها تلمّس جسد الطفل الطرى . وحين دنا منها سحبت يدها خجلى . فأخذ

بدوره يتفحص الطفل . يشد ساقيه ويديه .. وقال :

هذا ولد ميّت .. ولكن !

وبكت :

- واى .. أنا خائفة .. هنا يدفنون الأموات ؟؟ لامس كفها الصغير ليزيل

بعض هلعها :

- لا .. يدفنونهم فى المقبرة .

وأشارت بإصبعها :

- وهذا ؟؟

- لا أدرى .

ثم انكفأ يلفّ الطفل بقماشه ، وغيره من الصبيّة والبنات بدأوا يهرعون عبر

باب الحوطة . يقتربون .. يقتربون . وقبل أن يكمل وضع الطفل فى حفرتة

كانوا يتحلّقون حوله متسائلين .. لكنه صرخ فيهم :

- ابتعدوا .. لا عليكم فى هذا الأمر .

وثار صراخ الأولاد .. ثم امتدت يد أحدهم لتشد «ناصر» من فوق

التراب .. وسحب الصرة البيضاء وفتحها أمام أعين الجماعة التى ماكادت ترى

المشهد حتى تطايرت رعباً . وتراكضوا إلى بيوتهم ليعلونوا الخبر . فشدّ على يد

أخته .. وألوى راکضاً هو الآخر ناسياً المدرسة التى خرج إليها مسرعاً هذا

الصباح .

* * *

سرى الخبر سرّيان النار فى الهشيم . وخلال وقت قليل كانت الحوطة تعج

بعشرات الرجال والنسوة وبعض الصبيّة الحفاة في دشاديش النوم المقلّمة
القصيرة يفركون أعينهم التي لم تشبع من النوم .

أخذ بعض الرجال يهش الجموع ، لكن الجموع تبتعد من جهة لتردحم من
جهة أخرى . وبدأ شجار بعض الصبيّة ، وكأنّ ثأراً قديماً قد استفاق فجأة
بينهم . بينما تقرص أفضاخهم وزنودهم أصابع الأمهات اللواتي يردن أن يسمعن
كل كلمة ينطق بها الرجال المتحلّقون حول جثة الطفل التي أصبحت مشاعاً لكل
الأعين .

قال أحدهم :

- نواربها التراب .

اعترض آخر :

- هذه ليست مقبرة .

تهدّ ثالث وتعوّذ :

- من الذى فعل هذه الفعلة ؟

صرخ صوت :

- أقسم أنه «ابن حرام» أرادوا التخلص منه !

هدّاه رجل :

- سمّ بالرحمن . لا تُقسّم قبل أن تعرف الحقيقة . لكنه احتدّ أكثر :

- حقيقة .. أية حقيقة ؟

وأشار بيده إلى الجثة وأكمل :

- الحقيقة أمامك .. ولست أعمى .. جاهل ميّت مدفون في حوطة .

عاد يهدئه :

- صحيح .. صحيح .. لكن يُمكن !!
- لا يمكن .. ولا يصير .. هذه فضيحة تتوارى وتنكشف .
- كان الغبار الأحمر قد تزايد ، والهواء يرتفع ويهبّ فيحمل معه الورق ..
وبقايا القمامات . حتى عباءات النسوة بدأت تتطاير ، ولح أحدهم ساق امرأة
فاقترب منها :
- أنت .. خذى ولدك وارجمي إلى بيتك ..
ولم يتنه حتى كان لسانها ينفلت بالصراخ :
- ألم نجد غيري ؟ كل هؤلاء - وأشارت بشكل نصف دائرة - كلهن ولا نجد
غيري .. أم أنني واحدة من أهل بيتك لتتحكم بي ؟
حمل الرجل نفسه وابتعد يهز رأسه .
أخيراً جاء صوت أبو يوسف .. الرجل التقى :
- يا جماعة الخير ! صلوا على النبي . نحمل الطفل إلى «الدختر»^(٧) أو إلى
«الأمن العام» ونسلمه هناك والحكومة تتصرف .
وتدخل أحدهم :
- لماذا لا ندفنه يا «أبو يوسف» وأحدنا يجبر الحكومة . حرام أن نحمل جثة
الطفل بهذا الشكل . وافقت عدة أصوات :
- هذا أفضل .. هذا رأى معقول .
وتلفت «أبو يوسف» يستعرض الجموع .. والصغار وأشار :
- وهؤلاء الناس ! هل ستركون الأمر بسلام ؟
- صدقت يا «أبو يوسف» صدقت .. صدقت .. همهمات انطلقت ، وكل

- وجه يستعرض الوجوه الأخرى ، وأبو يوسف يقترح :
- هل يتكفل أحدكم بالذهاب إلى الحكومة .. وآخر بجراحة الجثة ؟ أما أنتم
- وشق طريقه بين الناس :
- أرجوكم .. كل إلى بيته .
- وحين لمح وجوه بعض الأولاد الكبار صرخ فيهم :
- وأنتم .. لماذا لم تذهبوا إلى مدارسكم ؟
- تراكض بعضهم بينما ردد باقون :
- الدنيا « طوز » عمى أبو يوسف .
- هشهم :
- زين .. زين .. يا الله .. كل واحد على بيته .
- تفرق الجمع .. بقى اثنان قرب الجثة التي واروها التراب ، وانسحب ثلاثة في طريقهم إلى التبليغ .
- لم تتفرق النسوة .. سرنَ جماعات .. وأحاديثهن تتطاير مع تطاير الغبار والقاذورات .. وكل واحدة تتساءل :
- هل يكون الطفل ابن فلانة .. أو فلانة .. أو فلانة
- ففي الحى المجاور نساء معروفات ! لِمَ لا تكون إحداهن قد أرادت الخلاص من الطفل ؟ وتساءلت أخرى :
- ولكن ! لماذا فى الحوطة .. لماذا لم تدفنه فى حوش بيتها ؟
- شىء عجيب . هذه حكاية لم تخطر على البال ! ولكنى أوكد أنه ابن حرام كما قالوا ، وإلاّ لما تخلصوا منه .

- سخرت واحدة :
- كأنك ترين ابن حرام لأول مرة ! كم من طفل وجدوه مع « مشيمته » في « البلدية » بين الأوساخ !
- صحيح .. لكن هذا ميت .. وربما مخنوق !
- الخوف .. الخوف يا أم حمد .. أو ..
- التفتت إحداهن إليها :
- أو ماذا ؟
- الله أعلم .. ربما يكون ابن عائلة ! !
- وضعت النسوة أكفهن مفروشات فوق رؤوسهن ورددن :
- الله اكبر .. الله أكبر .
- وشهقت واحدة بصوت عال :
- يا جماعة .. تذكرت .. أينكن عن الصوت ؟؟
- أى صوت ؟ ماذا تقولين ؟
- انطلقت التساؤلات من كل الألسنة بفضول ، وكأنها تهزأ من جهلهن .
- قالت المرأة :
- أى صوت ؟؟ كأنكن نسيتم !
- وأخذت تردد :
- « قلبى على طوير خضر ..
- شالوه من إيدى ... الخ »
- وقاطعتها إحداهن محتدة :
- بَسْ .. هذا غباء .. الصوت الذى نسمعه صار له شهور ..

- اعترضتها أخرى :
- ما المانع أن تكون أم الطفل ؟
- عادت الأولى تدافع عن وجهة نظرها بذكاء تفخر به :
- لقد رأيتن الطفل : هذا مدفون جديد .. وذلك الصوت قديم .. فهل تبقى جثة الطفل سليمة هكذا ؟؟
- ساد صمت .. كأن كل واحدة تلعن غباها .. وتهايمن :
- صدقت .. صدقت .
- عادت الأولى وكأنها تريد أن تعيد ثقتن بأنفسهن :
- كلامكن عن الصوت صحيح .. والله أعلم .. ربما أخذوا من صاحبه الطفل عنوة .. ودفنوه لكنه على أية حال ليس هذا الطفل .. هذا له أم أخرى أرادت التخلص منه .. ومن يدري ربما أهلها ... ثم ضحكت :
- ومن يدري أيضاً .. ربما غداً نسمع أغنية أخرى . قالت لإحداهن وبوشيتها تلتصق بفمها :
- إن كانت له أم مغدورة .. فما أن تسمع حتى تهرع إلى المكان .. أما إن ...
- وأكملت أخرى :
- إن كانت هي وأهلها الذين تخلصوا منه فلن تتحرك .
- غداً نسمع الأخبار .
- قالت واحدة بحسرة :
- من أين يا حسرة ! الحكومة ستأخذه وتدفعه وتضيق قصته كما ضاعت قصص أخرى قبله .

* * *

ولم يكن مقدراً أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها حكايات .. فحين كان المارة يسمعون بكاء طفل في أماكن البلدية المنتشرة في الأحياء . أو عند أبواب المساجد .. أو في السوق يجدون طفلاً في « زيبيل »^(٨) تثور الأقاويل .. تلمع الشائعات ثم تصدأ بعد ذلك وينام عليها الغبار والنسيان .

* * *

استيقظت الآذان وصدى الصوت النائح يشق المسافات ، يعبر إلى الوجدان ، يهزّ النوم الراقد في الأجفان .. ومنذ كبر المؤذن داعياً لصلوة الفجر كانت الأغنية الحزينة تنطلق كصلاة تشق رقعة السماء التي هدأ نريفها الأحمر . لم يعد الصوت وهماً مجرد .. ولم تعد الأغنية مجرد صدى .. إنها حقيقة تؤكد نفسها اليوم ، وتمزق شرايين الصباح المتنفس بعد ليلة طال فيها السهر .. وكثرت الأقاويل .. والتخمينات .

نفض الناس عنهم دَبَقَ الأجساد ، والرجال في طريقهم إلى المسجد تغيرت خطواتهم .. ساروا باتجاه الصوت الذي تأكدوا أنه حيّ يصرخ من حوطم .. ويقترّب كلما اقتربوا .. وسحبت النسوة عباءاتهن وخرجن ، يلتقي فوج بآخر ، يلحق بهن الأطفال والصبية .. والرضع على الأذرع لم يقتسلوا من بولهم بعد .. وربما لم يرضعوا . الصباح يحمل الرّنة الحزينة .. لا يسمع سواها ، وسوى صوت الأقدام .. يحذف أحدها علبة مبعوجة فتثق ثم تحرس .. وقدم يحذف عصا فتطير مستغيثة .. وخبطت قدم في « براز » أحد الصبية .. فسحق نعل حذائه على التراب الخشن ، وفاحت رائحته القديمة ، فابتعد الناس مهرولين

كمن تلحقهم عصا إبليس .. والصوت يقترب .. ويقترب كلما دنوا من
الحوطة .

وعند بابها توقف الجمع .. كان الصوت راقداً فيها . عارياً هذه المرة ..
يؤكد حقيقته بنواح مذبوح .

اندفع الفوج .. وعلى التراب الرطب .. كان جسدها مُلقى .. عباءتها تنسدل
عن نصفها العلوى فتبدو جديلتان فاحمتان تمتزجان بالتراب .. وصوتها يمتزج
بدمعه ، جباراً كأنه يعنف هذا العالم الراقد تحت جذور الخوف وأتربة النهارات
المرّة المتعاقبة .

لم تجرؤ امرأة من قبل أن تعلن عن نفسها ، واليوم ! ها هي قد انكبت على
القبر الفارغ ! تنبشه بأظافرها .. مزقت رمله .. وطحنت حصاه ، وحين لم تجده
فاح عواؤها البائس ..

وردت الأغنية التي ربما كانت لأم مفجوعة قبلها .. أو لأمهات توأد
قلوبهن في الليل تحت تراب الأرصفة الشرهة للحم الخطايا الدائمة .

انكفأ رجلان .. رفع أحدهما العباءة ليستر وجهها .. وأمسك الآخر
بذراعيها ليقفلها من على التراب . لكنها التصقت بالأرض التصاقاً يتحدّى
الأذرع القوية الممتدة .. غرست كفيها في القبر المفتوح وصرخت :

- دعونى .. أموت . لقد قتلوه .

لم يكن همّ الرجال مُسلطاً على معرفة المرأة ، فهم حتى لو شاهدوا وجهها
تحت أشعة الشمس المشرقة لما عرفوها .. لكن فضول النساء كان يغلى .. كل

تريد أن تلمح ولو طرفاً ، عينا .. أو شفة أو خدًا .. لعلهن يجلسن من
تكون .

لكنها لا ترفع وجهها .. ولا تشعر بوجود من حولها .. لا تحس بالفضول
القاتل المثل من العيون ، لا ترى حولها إلا أشباحاً لأيد مزقت البارحة قلبها ..
واختطفت الطفل من بين فخذين استسلا للعشق ذات ليلة .

* * *

تجدّرت المرأة في الأرض .. تسكب عصارة الروح الجريحة .. وتنبع آهاتها
كما تنبع نافورة دم من أرض داستها أقدام دخيلة نجسة .. وصوتها يعلو ..
وينخفض مبدلاً بالأسى .. ممزوجاً بنغمت كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه ..

«أصرخ وجمر في الحشا ..

هذا ثرى وليدى

هذا ... ثرى وليدى ..»

وتهطل دموع الرجال الذين يحاولون انتشالها .. لكن الجسد ثقيل .. كأن
آلاف الرمال والأتربة والحصى دفنت فيه .

* * *

كان النهار قد شعشع .. جدائل باهتة بلون الوجوه .. ونواح النسوة ..
يتقاطر .. كل تقف في مكانها تغطى صفحة الوجه ببوشية سوداء رطبة . لم تعد
واحدة تبحث بين الفوج عن شبر تطل منه لتعرف وجه المرأة . كان الحزن قد
تدفق إلى صدورهن . فمات فيها الفضول .. ماذا يهم أن يُعرف وجه المرأة ؟ كان

الغضب يلزم أنات البكاء .. يودّ لو يصرخ في وجوه الرجال المتحلّقين ... أن يشير بالأصابع ! أن ينفلت كما تنفلت أنات المرأة ! وكما انفلتت جدائلها السوداء تتعفّر بتراب الأرض .. بملحها الذى رُشّ على جثة الطفل ... وكانت العيون تتساءل : أين ذلك الرجل الذى شاركها الفعل وزرع البذرة ؟؟ لماذا لا يأتي كما جاءت !! ولا يبكي .. كما تبكى .. ويتمزق .. كما تتمزق جوارحها ؟؟ لكن الغضب لا يخرج .. والصرخة حبيسة تحشى الانفلات لترتاح من ثقل سنوات الصمت .

حاولت إحداهن أن تشق طريقها .. وتقرب حاملة طفلها الرضيع .. ودّت لو تمدّ يدها به إليها .. وتستحلفها بالله :

– خذى .. هذا هو ابنك .. لم يميت .

لكن الخوف المنسوج كخيوط العنكبوت أوقف المحاولة .. وكذلك الصرخة الداوية التى ارتعد لها الفوج كله .. واستفاقت منه عيون الرضع النائمة . صرخة المرأة مرّقت وجه الفجر المفتّح .. ثم ارتدت سكينٌ شقت الصدر الذى تمزّق ثوبه .. وانكفأت بلا حراك .

* * *

حين تفرقت الجموع تسحب خطاها بمنزن تحمل عثار طريقها الذى ما استطاعت جدائل الشمس أن تنيره .. كانت تتهادى إلى الأسماع تلك الأغنية ! حزينة .. لا تزال .. لكنها شديدة الوقع .. تخترق الآذان وكأنها تطرقها بآلاف المطارق .. توقظ فيها شيئاً .. تذكر أن الصوت حىّ .. وأنه .. سيبقى .

وتقول الحكاية إنهم حين جاءوا ليحملوا جثة المرأة .. وجدوا حليب ثديها
المكتنزين يصب في القبر.. ويروى التراب .

دفنوها .. دفنوا سرًا عاش بصدرها .. ومات معها . لا أحد يعرف
الحكاية .. وحدها فقط كانت تعرفها . ولو بقيت عيناها مشرقتين على هذا
الأفق الجاحد لروت حكايتها التي تقول :
.....
.....
.....
.....

إشارات :

- ١ - دويدى
 - ٢ - ساحة الصفاة
 - ٣ - بوشية
 - ٤ - مطابق
 - ٥ - «عبدة»
 - ٦ - الطوز
 - ٧ - اللدختر
 - ٨ - زبيل
- تصغير لكلمة - ديد - وتعني ثدى .
ساحة رئيسية في مدينة الكويت .
غطاء الوجه للنساء ولونه أسود خفيف .
جمع - مُطْبِقٌ - وهو وعاء خاص لوضع اللبن .
خادمة مملوكة . غرّوية اسمها .
الغبار الأحمر الذي يأتي في الصيف .
الطبيب .
قفة .

ينفصل الوطن .. تنفصل الطريق

للجرس نغمات خاصة كأنها رقصة سجيئة تنطلق ، ونهاية اليوم الدراسي
تعني الحرية لمساجين الفصول الدراسية الساخنة ، وبحلو الهرب بعد يوم رطب ..
يذيق تتلاصق فيه الثياب بالجسد .

في دقائق انفلتت الطالبات من الصفوف كما تنفلت الخيل المنتظرة إشارة
السباق . أصوات أقدامهن المتراكضة على الأرض تثير أنغامًا حاسيةً تحتلط مع
الأنغام المنبعثة من السيارات المنتظرة . وتسجم مع اللحن الذي ينبعث من
راديو الباص .

تقافزت الطالبات إلى جوفه بعضهن ضاحكات تتناثر خصلات شعورهن
على جباههن الرطبة .. وبعضهن يبدو أثر دموع في عيونهن . ذلك يعني أن
نتيجة اليوم الدراسي لم تكن مرضية .

أسراب .. أسراب .. تدلف إلى بطنه حتى كاد يتملىء إلى عنقه . صارت
الخيل المنفلتة سردينا يتلاصق رغم الرطوبة ، وانبعثت رائحة العرق ، ورائحة
الجوارب ، وأحذية الألعاب المهترئة .

- أف .

زفر السائق . سحب منديله وغطى به أنفه ينتظر اكتمال العدد . بينما صراخ الطالبات وأحاديثهن تضيع مع الأنغام التي كانت مسموعة من شبابيك الباص قبل امتلائه .

صاح السائق منادياً بعض الطالبات المتجمعات حول بائع «الآيس كريم» فَهَرَعْنَ إلى الباص الذى ماكاد يبتلع أجسادهن حتى أُغلق بابه .. وحرك السائق المفتاح . وقبل أن يتحرك .. امتطت سيارة فارهة أمامه . وسدت عليه الطريق . ضغط على البوق .. مرة .. وثانية .. لم يستجب سائق السيارة الفارهة .. ضغط مرة ثانية .. كأنه يحذّر من غضبه لكن السائق الآخر لم يتزحج .

* * *

الحر شديد .. الباص يكاد يستفرغ ، الرطوبة .. أنفاس الفتيات .. صراخ بعضهم يراجعن مادة الجغرافيا التي كان يكرهها مذ كان تلميذاً . التفت إليهن وقد بدأ يفقد أعصابه :

- اسكتن يا بنات .. ارحمّتنى .

تضاحكت الطالبات ، تغامزن عليه .. وعدن إلى ثرثرتهن ولكن بصوت أقل حدة .

يده على البوق ثانية .. ثلاث ضغطات .. طوط .. طوط طوط .. لكن السائق كاللوح لا يتحرك .. ومن نافذة السيارة الخلفية أطل وجه امرأة هندية ملاً الشيب مفرقها ومن عينيها أطلت نظرة ضجر .

ما دام وجه الهندية قد أطل فلا بد أن السائق قد تنبّه إليه .. فتأدى في الضغط على البوق .. أمله يجيب . يزفر .. يضغط .. يمسح العرق .. يضغط .. تمد الهندية ذراعًا ذابلاً زمت أطراف أصابعها وحركت يدها بإشارة تعنى .. مهلاً .. مهلاً .

لكنة لم يتمهل .. ألقي بكل ثقل كفه على البوق .. ضغطت البنات على آذانهن .. بينما تطايرت أخريات كُنَّ قد التصقن بالباص متحاذن من في داخله .. وتتفقن على بعض الأشياء للغد .

* * *

أخيرًا .. ترجل سائق السيارة الفارهة .. كان يبدو وكأنه فقد أعصابه .. دنا من الباص .. خاطب السائق من نافذته المفتوحة :

- يا حجار ! لماذا تنهق؟؟

تصاحكت الطالبات .. كأنهن يشمتن بالسائق الذى يُخرسهن دائمًا .. ولكى يدارى خزيه من الطالبات تكلم بهدوء :

- سامحك الله .. أريدك أن تفسح لى الطريق .. لقد عطلتنا .

لكن السائق الآخر هزّ يده فى الهواء وزعق :

- تعطل . ما الذى يحدث لو تعطلت ؟ هل تحمل ابن وزير أم ابن رئيس؟؟
هدأه السائق :

- يا أخى .. أرجوك .. الدنيا حر .. والبنات لهن أهالى ينتظرون .

لكن الآخر رفض مهددًا :

- لن أمشى .. ووالله لو نفخت بوق باصك هذا ثانية فسأجعل سيدى يأتى

- غداً .. ليحطّم رأسك . تنهّد سائق الباص مستسلماً .. أطفأ المحرك .. مسح
بمبديله المتسخ عرق وجهه والتفت إلى الطالبات :
- هيا اسكتن .. ستبقين في هذا القرن حتى يتكرم هذا السائق المغرور ..
ويتحرك .
- لاح ياس على وجوه الطالبات .. تهايمن :
- هذا سائق غنيمة .
- تتاهى للسائق همس الطالبات .. التفت إليهن :
- غنيمة من ؟ ابنة من ؟؟
- لم ترد عليه واحدة .. انكمشن صامتات .. بينا تعرقت ثيابهن حتى بدت
وكأنها مغسولة بالماء .
- مرّت نصف ساعة قبل أن تقبل من داخل المدرسة طالبة سمراء .. في الرابعة
عشرة من عمرها .. تبدو أنيقة .. مرتبة .. حذاؤها رغم تعب النهار يبدو
نظيفاً .. تربط جديلتها بشرائط بيضاء ناصعة .
- آه .. يبدو أنها بنت أكابر .
- قال سائق الباص وهو يلتفت بنصفه إلى الطالبات .
ردت طالبة :
- أبوها تاجر كبير مشهور .
- ومغرور .. وسائقه مغرور .. وطبعاً ابنته مغرورة . تصايحت بعض الطالبات
باحتجاج :
- لا .. غنيمة ممتازة .. متواضعة .. طيبة .. و .. و .. هزّيده مهدّئاً :
- طيب .. طيب .. الله يرزقنا كما رزقها .

نفوه بأمنيته .. ولم يكن يتصور أنها مخزونة في قلوب الطالبات المكذسات ..
فوجئ بأصواتهن تردد :
- آمين

* * *

الطالبة السمراء تقترب . الهندية ذات الذراع الداوي تترجل تحمل حقيبة
الطالبة ، تفتح لها الطريق . السائق ينزل من السيارة يفتح الباب .
دلقت الفتاة .. استرخت .. نوافذ السيارة مغلقة .. في الداخل مكيف
هواء يعمل .

تحركت السيارة .. فتحرك الباص . مدّ السائق يده أدار جهاز الراديو فجاء
صوت المذيع أجش يقرأ نشرة الأخبار .
- أف ..

زفر السائق ، وأحمد صوت المذيع وهو يزفر :
- أخبار الشوم ..
سألته إحدى الطالبات :

- ليش ؟ ما بدك تسمع أخبار الوطن ؟؟
- إيه .. خلوها مستورة .

كان الطالبات عرفن سرّ التنهيدة الطويلة العميقة بدأن يصفقن ويغنين :
« هو ذا الصوت من الأرض السمراء آت من حقل .. من شمسي ..
من آلام شعبي آت » شدّه الحنين إلى الوطن .. دمعت عيناه .. لاحظت
إحدى الطالبات الدمعة الحزينة المنهارة على خدّه :

- لماذا تبكى؟؟
- تذكرت البلد .
- هل تذكرها جيداً ..
- بالطبع .. غادرتها حين كان عمري عشر سنوات .
- آه ..
- تنهدت طالبة وتابعت :
- نحن لا نعرفها .. أهلنا فقط يتحدثون عنها .. فنحبها . هز رأسه :
- الوطن غال يا بنتي .. الوطن غالٍ
- يرتفع صوت الطالبات بنغمة شجيّة :
- باسم الحرية راجعين يا فلسطين ...
- فلسطين عريّة
- الصوت يعلو .. الحريتنا .. الشمس المحرقة ، وتحذق إشارة المرور الحمراء
- بوجه السيارات .. أشار سائق الباص إلى الطالبات :
- هس .. اسكتن .. بلاش أغاني .
- كانت السيارة الفارحة التي تحمل غنيمة ملاصقة في تلك اللحظة للباص ..
- تدلت رؤوس الطالبات إلى السيارة أطل وجه غنيمة من خلف الزجاج ..
- ابتسمت ، أشارت بيدها تحيي .. فتحت النافذة .. تصايحت الطالبات .. كل
- تريد أن تقول كلمة .. قبل أن ترد غنيمة على كلماتهن كانت الإشارة تبتلع غضبها
- الأحمر .. ويتبدل إلى أخضر .

* * *

الطريق الممتد واحد .. أخذ سائق الباص يسابق السيارة والطالبات
يغنين .. فَرَحَات .. وحين تسبقهن السيارة ترتفع أصواتهن باحتجاج :
- ياه .. أبو راجح الله يخليك اسبقها .. اسبقها .

يتعجب :

- إيه ! أسبق كاديلاك ؟ هذا باص «كحيان»^(١) . ويختلط رجاؤهن :
- ولو اسبقها ..

- بس .. أماننا إشارة ثانية .

يقف الباص ... السيارة بجانبه .. تطل الطالبات وهن يرددن باقي الأغنية
الحجاسية :

« وجئت طلقة .. وجئت صفقة ...

لكل ضمير خائر ...

تركت النجم .. تركت الآه .. تركتُ التَّعم الحائر و..... » .

غنيمة تفتح نافذتها .. تطوف على وجهها سحابة حزن وتمن . يلتفت
سائقها يشير لها أن تغلق النافذة التي تسرب منها صدى أغنية شعبية وطنية .
صوت الطالبات يرتفع يتحدى ارتفاع النافذة الزجاجية . غنيمة تبسم
لهن .. تشير بحماس .. انسجام هادئ يطل من عينيها .. وألفة .

* * *

عند آخر إشارة يفترق الباص عن السيارة التي دلفت إلى أحد الأحياء
السكنية .. ويتحول الباص إلى منطقة «حولى»^(٢) حيث ستبدأ رحلة توزيع
الخبول إلى اصطبلاتها .

الحياة عامرة .. المحلات التجارية .. البقاليات المتناثرة .. المارة تكثظ بهم
الأرصفة ... رجال .. نساء طالبات .. وطلبة .. يهرولون هرباً من الحر إلى
البيوت ، المطاعم ومحلات شئى الدجاج تفوح رائحتها الذكية فتثير إحساس
الجوع فى نفوس الطالبات .. يتلمظن . تتمنى إحداهن :

- ليت أمى تكون طابجه دجاجاً ..
قالت ثانية :

- اليوم ستتغدى « مجدرة »^(٣)

شهمت أخرى :

- ياه .. أنا أحبها ...

بينما تأففت أخرى :

- يوه .. أنا أكره هذه الأكلة .

لم توافقها كثيرات من الطالبات .. حتى سائق الباص :

- هذه أكلة غنية .. إنها « مسامير الركب » ضحكت الطالبة :

- لا أريد مسامير لركبى ، أنا قوية .. ألعب الجمباز أحب الدسم .. دجاج .

لحم .. بازيلا .. بطاطا ..

- إيه .. صحتين على قلبك

قالها السائق وتوقف عند أول المنعطفات وفتح باب الباص :

- هيا .. اللي عليهن الدور ...

تدافعت خمس طالبات .. وما أن أغلق الباب حتى أخذت من فى الباص

يشرن بأيديهن مودعات لصويحياتهن متمنيات أن يأتى دورهن بسرعة .

خَفَّ حمل الباص .. أخذ الهواء الرطب السجين حرته .. لطفَ الجو قليلاً .. انخفض صوت الطالبات .. بتحدثن أحاديث مختلفة ويقلدن بعض مدرساتهن أو يشتمن بعضهن .. ونسين في غمرة مرجهن التأخير الذي حدث حين أصرَّ سائق غنيمة على الوقوف .

* * *

سيارة غنيمة تبدأ رحلتها في الحى السكنى .. الهدوء يجيم على الشوارع .. لآحلات تجارية ! ولا بقاليات : لا رائحة دجاج ولا زعتر تفوح .. النظافة واضحة والحشائش المزروعة تلفظ أنفاسها الخضراء فى هذا الحر الشديد .. أغصان الشجر تلبت أوراقها ... فلا نسمة تهزّها .. ولا حركة بشر .. ولا أغنيات تنبعث من شبابيك باص ! أحست بالضجر .. لا يزال سمعها يحمل رنة الأغنية الحاسية .. قالت فى نفسها :

- « غداً .. سأطلب منهنّ كلمات الأغنية . »

فرحت لهذا القرار وهى تتذكر وجوه الطالبات ، الفرح المنتشر على وجوهن رغم تكدسهن فى باص غير مكيف .. وتنهدت ..

* * *

فى البيت .. فاحت رائحة الطعام الشهى .. رغم هذا قالت لأمها :

- لا أحس برغبة فى الأكل .

وانهال دلال الأم .. أخذت تعددها الأصناف المطبوخة والمقبلات .. لكنّ

الفتاة ظلت صامته .. تجول عيناها في أنحاء المكان .. كل شيء نظيف ..
جميل فخم .. رائحة العزّ تفوح كما تفوح رائحة الطعام . وصوت أمها يأتي
كأنه من البعيد .. في أذنيها لا تزال تتلاعب موسيقى الأغنية التي لا تحفظ
كلماتها يتأرجح معها صوت ضحكات الطالبات وفرحهن الصادر من القلب .
تطلعت في وجه أمها وإذا سحابة خوف تنتشر عليه :

- غنيمة .. ما بالك ؟؟ هل أنت مريضة ؟؟

- لا يا أمي ..

- إذن .. ما بالك صامته ! ولا تريد أن تأكلى ؟؟

- أنا أحلم .. أحلم يا أمي ..

واستلقت على المقعد الوثير وسؤال أمها ينطلق فرحًا :

- تحلمين ! بماذا ؟؟ قولي كل أحلامك تتحقق حالاً .

تلاعب حزن في وجه الفتاة .. أكدت لأمها :

- إلا هذا الحلم .

وحشتها أمها :

- كل الأحلام أحققها لك ..

اعتدلت :

- إذن .. أريد أن أركب الباص مثل بنات حوّلى .

و.....

انكش وجه الأم .

* * *

١ - كحيان كلمة فلسطينية بمعنى «قديم ومهترئ» .

٢ - حوّلى - منطقة أغلب سكانها من الإخوة الفلسطينيين

٣ - مجدّره - أكلة فلسطينية - مثل الكشري .

على سفر

صفرة السماء الذهبية تنعكس على الوسادة ، ورأسه مصلوب عليها .. أنظر
إلى جثته ممددة أمامي .. غير مصدق أنه مات ... ولولا صراخ أمي وولولتها
لظننت أنه يغفو غفوة طويلة سيصحو منها بعد حين .

إخوتي يتحركون حول الفراش .. ينظرون إلى وجهه الأصفر .. هل حقا هو
يودعهم إلى الأبد ؟؟

وحدى كنت لا أعبا بهذا الجسد المسجى .. أنظر إليه يملأني الحقد .. وتتائر
نظراتي عليه مع زفرات حسرة كثيرا ما كنمتها .. وصراخ في داخلي يكاد أن يشق
الصدر وينطلق لولا صوت أمي يكتم دونه كل صوت .. تولول :
- اتصل بعمك .. اتصل بالجيران .. بالإسعاف .. افعل شيئا .

يتطاير إخوتي .. أحدهم يقطع المسافة ما بين السرير وباب غرفة النوم
كالحلم .. آخر يمسك بساعة الهاتف ويزج إصبعه داخل الدوائر يحركها بأرقام
لا تلتقطها عيني .. أحسن أنه يخطئ الرقم .. كيف عرفت ؟؟ عيناى تتابعان
إصبعه .. ها هو يضغط على دواسة الهاتف ويعيد طلب الرقم ثانية .. أمي
لا تزال تولول ..

وحدى أقف لا أفعل شيئاً... أسلط عيني على وجهه ثم أسافر بهما في أرجاء الغرفة الفاخرة.. هذا السرير العاجي.. وتلك اللوحة النادرة التي تنصدر الحائط فوقه.. وهذان شمعدانان بالتأكيد لم يضيئا مرة.. هما للزينة فقط.. ويقرب السرير ترتاح الشاعرة المذهبة ملابسه تتدلى منها.. دسداشة حريرية تتساقط أكمامها جانباً بفعل الثقل الذي تحمله تلك الأزوار الذهبية.. غترته البيضاء معلقة فوق العقال.. تحرك أطرافها نسبات الهواء الباردة الآتية من فتحة التكييف.. أحسها تولول هي الأخرى تبيكي صاحبها.. وعلى السجادة ذات الشعر «الموهير» يرتاح نعلاه جلد التماسيح.. واحد فوق الآخر.

- على سفر- هكذا يقولون. ولذلك كانت أمي تحرص على ألا يركب نعلا أبي واحد فوق الآخر لأنها تكره سفره عنها. لكن أسفاره لا تتوقف. حاولت أن تبقيه في البيت شهراً واحداً دون أن يغادر مرة واخترعت حجتها لذلك قالت له:

- أشتهى أن تحتفل معنا بعيد رأس السنة الجديدة.

لكنه نظر إلى وجهها يفوح من نفسه اشمئزاز:

- ماذا أفعل بينكم؟ هل تحتاجون لشيء؟

قالت أمي:

- لوجودك.

وطبطب على كتفها:

- البركة في الأولاد.

وقبل أن يغادر التفت إليها كَمَنَ يطمئنها:

- سأترك لك مبلغ عشرة آلاف دينار.. قد تطول سفرتي.

عيناى على نعل أبى .. واحد فوق الآخر . أبى على سفر . هذه المرة يسافر إلى الأبد .

اقتربت .. أردت أن أزيح النعل عن رفيقه لكنى تراجعته .. خشيت أن يصحو ويقرر أن يبقى ثانية وأنا لا أريده أن يعود .. تركت النعلين وعدت بنظري إلى جسده المستريح بوقار على السرير المجهز بآخر صيحات الديكور .. أزرة تملأ رأس السرير .. هذا الزرار تلى أمى نداءه .. وهذا يلي نداءه السكرتير « مُنعم » . يأتي حاملاً البريد وأوراقاً أخرى تحتاج لتوقيع .. وشيكات كثيرة يحمل كل واحد منها رقماً خيالياً . وهذا الزرار « لسّوم » الصبى يأتي حاملاً القهوة المرأة .. يَصُبُّ وأبى لا يشبع ويتنظر حتى يهز الفنجان مُكْتَفِيًا . وقد راقبت أكثر من مرة وجه سلّوم مُتملماً بانتظار أن يتكرم أبى ويهز الفنجان .. واصطدته أكثر من مرة وهو يكرع باقى القهوة فى المر الذى يفصل غرفة النوم عن الصالة الكبيرة . سلّوم يتكّوم الآن قرب السرير مثل حيوان بانتظار أوامر سيده يستند بذراعيه على ركبتيه ويسقط رأسه بين الذراعين .. دمعة ترك آثارها على وجنته السمراء الداكنة .. وأشفق عليه .

لماذا يبكى ؟؟ هل يفكر بمستقبله بعد أن رحل ولىّ نعمته ؟؟ أم تراه حقاً يبكى أبى الذى لن يرى وجهه بعد اليوم .. ولن يصب له قهوته .. سلوم يجب أبى فعلاً رغم الضرب المبرح الذى يناله لأنفه سبب . هو جالس الآن كالكلب الأمين يبكى صاحبه .

جرس الهاتف يزعق .. يرفع أخى الساعية وكأنه يعرف صوت مَنْ سيأتى .
صوته يخرق سمعى .

- نعم ياخالى .. أعطاك عمره .. تعال بسرعة ..

قبل أن يغلق تمتد يد أمي تسحب سماعة الهاتف .
 - ياخوى مات .. بوحمد مات .. أبو عيالى مات . نشجت بعواء جديد
 تساءلت لماذا يصدر عنها ! هى التى رغم عطايا أبى لم تكن يوماً سعيدة
 معه .

* * *

كان شجارهما يصل إلينا دائماً .. لهاث أمى .. صوت بكائها يخترق حائط
 الغرفة ليفجر فينا ينابيع الحقد على أبى . قبل سنوات كان لا يتوانى عن ضربها
 : أمامنا بالعقال .. أو بالتعل .. كانت تكتتب وتدارى . وجهها المبتل خجلاً منا ..
 وبعد يوم أو اثنين نراها باسمه فى وجه أبى .. وتراه يقدم لها مصوغة جديدة من
 الماس أو الذهب .. وترضى .. وفى نفس اللحظة تخترع مناسبة :
 - غداً سأدعو بعض الصديقات على فنجان شاي . بيتسم أبى بمكر يفهم أن
 المناسبة هى أن ترى الصديقات الهدية الجديدة وستعرف أمى كيف تخترع
 سبباً وجيهاً تؤكد من خلاله حب أبى لها وسخاءه عليها . لكذبها بينها وبين
 نفسها تفهم أن هذه الهدية لم تكن إلا ثمناً للصفعة التى حصلت عليها ..
 وبكت ليلة أو ليلتين ذلاً وحزناً .

الآن هى تولول ... أف .. لماذا تحزن ؟ لماذا لا تزغرد ؟ لماذا لا تواجه أبى
 بفرحها وتنتقم من كل الأيام والسنوات السالفة ؟؟
 وسلوم أيضاً يبكى .. لماذا يتكور هكذا قرب السرير ؟ دنوت منه :
 - قم .. حضّر القهوة . خالى سيأتى الآن .
 وتحرك بسرعة أذهلتنى .. كأنه كان يتمنى أن أطلب منه ذلك ليرتاح من فعل

بجمالة .. أو ربما ليبتحى جانبًا آخر ويكي على راحته .. لا أدري .. هل
يجزن حقًا هذا السلوم ؟؟

وحدى أنظر إلى الجسد بمجدد .. بكراهية .. تتفجر من عيني أسئلة .. ماذا لو
يعود الآن ؟ هل أصرخ في وجهه :

- لا أريد كل هذا .. لا أريد .

ثم أعلو بصوتي أكثر :

- مرة يا أبي قلْ لا .. مرة اصفني كما تصنع أمي وقل لي لماذا علاماتك هابطة
رغم وجود مدرسين خصوصيين .. مرة ابصق في وجهي حين أجيء إليك
وقد هُشمتُ السيارة الجديدة ! أو أتلفتُ الساعة الذهبية . لكنك أبدًا لم
تفعل تنظر إلى بلا مبالاة ثم في اليوم التالي تأتي :

- ياحمد .. خذ هذه ساعة بدل التي أتلفتها .. ثمنها ألف دينار .. هل
تعجبك ؟؟

أهز رأسي . لا أبدى إعجابي . أتمنى لو أمسك بالساعة وتواتيني الشجاعة
فأخبطها في رأسك أتمنى لو أنها غداً صباحًا تُسرق من يدي .. وأحاول ذلك
بنفسي .. أنزعها .. أضعها فوق طاولة النادي حيث أضع يومى . لكن
الكلب قرّاش النادي يتبعني بها :

- عمى حمد .. ساعتك .. نسيها .. الله ستر . وأحمل الساعة .. أحسها ثقيلة
كالزمن الذى حولي وتبقى معي حتى أساهم في ضياعها وأنا متأكد أن غيرها
سيسجن يدي .

الساعة التي على الكوميدينو ترقص عقاربها . الوقت يمضى وأنا أرقب
وجهه الأصفر وأتمنى ألا يعود فرما استطعت منذ الغد أن أسترده بعض ما فقدت .

أستطيع أن أفعل شيئاً أحبه .. أركب « باصاً » أو « وائيتاً »^(١) أو دراجة بخارية ..
وأخاصم السيارات الفارهة إلى الأبد . أريد أن تبدأ حياتي من جديد ولن يأتيني
صوته ثانية يوبخني :

- لماذا تعاشر أبناء الفقراء ؟ وتدرس معهم ؟؟ ولن أسمع كلماته تذبح طموحاتي
حين لا أحصل على نتيجة جيدة :

- لا يهم يا حمد . الدراسة لن تفيدك بشيء . أنت والحمد لله في نعمة يحسدك
عليها كثيرون . فتحت لك محلاً تجاريًا .. وعمارات كثيرة سجلتها باسمك تدر
عليك الربح .. ورصيد لك في البنك .. يكفيك أن تصرف في اليوم الواحد
ثلاثة آلاف دينار لسنوات طويلة .

- ولكن يا أبي - في محاولة للاعتراض - أريد أن أحصل على شهادة .
ويستكتي :

- التجارة شهادة .. والمال شهادة . أنظر إلى .. هل معي شهادة .. ومع ذلك
حققت لكم ولنفسى كل شيء . ثم يتسم باستهزاء كم كرهته :

- خذ الشهادة لأولاد الفقراء .

خذ ...

ويقدم لي مفاتيح سيارته :

- اركب الرولر رويس .. تمشي فيها على الكورنيش ألف فتاة ستطاردك .

* * *

أمي تبكي .. أف ... هل يستحق حقاً دمة منها ؟؟ عشرات النساء الآن
متى عرفن ستحزن قلوبهن لأن أبي لن يرشهن بعد اليوم بالمال .. أما أمي فكل
شيء باق لها .

الأمس كتفها بجنان :

- أمى .. يكفى .

وتتسارع مدائحها :

- كان الخير .. والبركة .. كان .. كان .. وكان

آه .. لا تكذبى يا أمى .. كان لا ينظر إلى وجهك المستور إلا نادراً .. وكان

يكيل لك التأنيب ، يصرخُ فى وجهك .. يضربك .. هل نسيت ؟؟ وكنت

ترين أحمر الشفاه على ملبسه .. وتشمين روائح النساء الأخريات فى طيات

جسده وحين سألته :

- ما هذا ؟؟

قال حتى دون أن يتكرم بالالفتات إلى وجهك المتسائل :

- «مو^(٢) شغلك» .

ولم تسكتى .. بمذلة توارثناها منك سألته :

- هل تعرف واحدة غبرى ؟؟

وضحك هازئاً :

- واحدة .. عشراً .. أنا رجل .. وحر ..

لم تكونى يوماً ما حرة يا أمى . كنت سجينه لهفتك على المجوهرات ..

والملابس الفاخرة التى تغيظين بها أمثالك من النساء اللذيلات .. بينا أشباح

النساء الأخريات تلاحقك حتى فى منامك . وفى رائحة أنفاس أبى . هو

رجل .. وعنده مال قارون . المال الآن كله لك يا أمى .

هزرتها :

- يكفى يا أمى .. أبى مات وانتهى الأمر .

وحدى أفرح .. أحس أبواب الحياة المغلقة تشرع نفسها لى .. وتدعونى أن
 أرتمى فى أحضان الحرية . سأترك كل شىء منذ اليوم .. سأدوس على هذا الذى
 يتصوره أبى نعمة .. سأتمنى بعد أن كسر سلم الأمانى تحت قدمى . سأحلم .. بعد
 أن مسح كل أحلامى .. سأذوب فى بحر الحياة بعد أن أذابنى فى حياة الترف
 فسبحت فيه مرغماً بينا أصدقالى الفقراء الذين يحتقرهم صاروا أطباء ومحامين ..
 وصيادلة .. وكل له حرفة يمتنها بعد أن عرق جبينه .. بعد أن حَلَمَ طويلاً ..
 بعد أن ركضوا وتعبوا ... هم الآن يرتاحون على بساط جهدهم وقد
 وصلوا

أصل إلى وجه أبى المسجى . أدقق فى ملاحظه التى كستها صفرة الموت ..
 عيناه مسبلتان بهدوء .. فجأة : أرتعش .. أستيقظ .. فتستيقظ فى عيني دمعة
 كبيرة .. تكاد تخترق جدارها لكنى أحبسها .. ويتفض فى قلبى إحساس
 غريب .. إذن ... أبى حقاً يموت .. يرحل إلى الأبد .. هل كنت أنتظر نهاية
 رحلته مع الحياة لتبدأ رحلتى إليها؟؟ أنزلق بعينى حيث يرتاح نعلاه .. لا يزالان
 واحداً فوق الآخر - على سفر - أقرب بهدوء .. أنحنى أساوى النعلين .. فى تلك
 اللحظة .. تسقط الدمعة الكبيرة ..

* * *

(١) وانيتاً : سيارة شحن صغيرة .

(٢) مو : ليس .

الكبسة

ارتدت عباءتها وأمرت كتتها :

- قومي يا عائشة ..

في انكسار واضح .. نهضت عائشة - مسحت يديها بفوطه مبللة ملقاة قرب
«الدوة^(١)» وتبعته أم زوجها .

* * *

في الطريق همست أم زوجها :

- عسى أن يكون على يدها الشفاء .

تعثرت الكلمات على شفقي عائشة :

- تظنين أنه بعد هذه السنوات التسع :

شدت على كلماتها :

- لا تفكري بالأمر .. «أم الشيبية» معروفة لم تقصدها واحدة وخاب أملها

- آه .. أنت لا تيأسين يا «خالتي»^(٢)

كانتا في تلك اللحظة قد مرّتا قرب بيت «الناعوم» أطلت عجزوهم بشجرها
الأحمر :

- صباحكم الخير..

تشاءمت المرأتان من وجهها . ردتا بالتناوب :

- صباح الخير..

- هلا .. ومرحبا ...

. ويفضوها المعهود سألت :

- ها ! وين على الله في هذا الصباح؟؟

ردت الخالة :

- عندنا «شغل» في السوق .

. مدت ذراعها الداوي :

- أنتظراني .. أحضر عباةق .. وأجىء معكما . حين دخلت لتحضر عباةتها

كانت عائشة وخالتها قد فرتا إلى زقاق جانبي .. وتوارتا عن الأنظار

* * *

قالت بصوتها الراجف ، وخطوهما لا يزال يفيض بكارة صمت النهار :

- والله العظيم يا خالتي رأيتك .. بعمري ما رأيت هراً بهذا الحجم .. وقف عند

عتبة الباب .. هزّ يده اليمنى وسمعته ينطق بالكلمات :

«لن تنجبي أبداً»

قرصت خالتها ذراعها الدافئ .

- بَسْ : قلت لك ألف مرة .. لا ترددي هذا الكلام .. هذا جنون .. وسوسة

شيطان .. أو قد يكون «الجاثوم»^(٣) .

انكسرت عينا عائشة إلى الأرض . وواصلنا السير .

* * *

فتحت أم الشبية الباب .. فهمت :

- أهلاً بالحبايب .. كان ودي هذه الزيارة من زمان ..
- همزت الخالة على ركبها وابتسمت متفربة :
- كلك خير وبركة .. ويدك فيها العافية إن شاء الله . ونظرت إلى عائشة
- وغمزت ، فتطلعت «أم الشبية» إلى وجهها المنكسر وسألت مازحة :
- خائفة يتزوج خالد من امرأة أخرى؟؟
- تدخلت أم الزوج حين لحت حزناً يطوف بوجه كتبها :
- والله خالد لا ينوي الزواج .. لكنه يريد ذرية .
- أكدت «أم الشبية» وهي تهز رأسها :
- معه حق .. معه حق ..
- ثم تربعت .. واستعدت :
- شوفي يا أم خالد .. تسع سنوات .. ولا فائدة .. هذه المرة لن تفيد مع
- عائشة إلا زيارة امرأة نفساء ..
- اعترضت أم خالد :
- بس يا أم الشبية .
- فهمت المرأة قصدتها :
- لا يهم .. أنت يهملك أن تحبل كنتك .. وأن تشمي رائحة ولدك الغالي في
- ذريته .. وما عليك من غيرك ..
- لكن : حرام .. ما ذنب بنات الناس؟؟

ثارت أم الشبية :

- أى ناس ! الله يهديك يا أم خالد .. سنذهب عند واحدة لا تعرفونها .
تبادلت أم خالد وكنتها النظرات .. وارتمت رموش عائشة بعدها لتحذف
معها دمة .

* * *

فى طريق العودة .. سألت خالتها .

- وكيف سنعرف الوالدات من غير اللواتى نعرفهن ؟
أجابت خالتها بلهفة توحى بأنها تستعجل الأمر :
- نسأل الناس .. ومن يدلنا نعطيه البشارة .

* * *

فى الظهيرة . دخلت اللدالة البدوية « أم دهاش » كعادتها تحمل بقشمتها ..
وتفوح منها رائحة « المحلب » .. عرضت بضاعتها .. اقتربت أم خالد تتفحص :

- ماذا عندك اليوم يا أم دهاش ؟

تراجفت شفة البدوية الرخوة . وأخذت تعدد :

- بجنور .. حلثيت .. ديرم .. علك بصرى^(٤) .. و.... قاطعتها أم خالد :

- كل هذا لا نحتاجه اليوم ...

شهقت أم دهاش :

- تردّينى خائبة يا أم خالد ؟

ضحكت أم خالد .. واقتربت منها أكثر .. وصوتها يخفت قليلاً :

- لا يا أم دهاش .. لكن طلبنا اليوم صعب .

- خبطت البدوية على صدرها بثقة :
- ما يصعب شيء على أم دهاش .
 - بارك الله فيك .. لهذا قصدتك ..
- فرحت البدوية بثقة أم خالد .. وأكدت :
- تدللي يا أم خالد .. والله لو طلبت عيون دهاش ترخص لك ..
 - عسى عيونه سالمة .. وَعَسَاكَ بِخَيْرِ يَا أُم دَهَاش ..
- استعجلت البدوية الطلب :
- ها .. طلبك؟؟ مرادك؟؟
- استوت أم خالد في جلستها .. فاح طعم الرجاء من كلماتها :
- نريد يا أم دهاش أن تقوم عائشة بزيارة لامرأة نساء حتى يحقق الله لها مرادها .
- خبطت البدوية على صدرها :
- يا قلبي يا عائشة ... طال صبرها ... و....
- تلعثمت .. تهذبت شفقتها وسال منها بعض اللعاب .. أكملت :
- لكن يا أم خالد .. هذا الأمر قد يؤذي النساء .. أو الطفل ...
- وتعرفين
- قاطعتها أم خالد مهذبة :
- يا أم دهاش .. نريدها أن تدخل على واحدة لانعرفها .. نحن لانريد أن تؤذي من نعرفه ..
- استراحت تقاطيع أم دهاش :
- فهمت قصدك .. أذية المعارف حرام .

أنتت أم خالد على ذكاء البدوية :
- كلك بركة يا أم دهاش .. وأنت يا « عوينتى » تدخلين كل البيوت .. وتعرفين
أسرارها .. ومتى عرفت عن ولادة .. أخبرينا ...
غادرت البدوية .. طرقت الباب وراءها ...
وكان أمل جديد يطرق قلب عائشة .

* * *

هو الليل يأتى .. غلالة سوداء تنسدل تدريجياً على الأحياء الطيبة ، تنعس
العيون .. تهجع الدجاجات فى أقفاصها .. وتحمد رائحة المواقد ، تبرد فيها
أباريق الشاى ..

وعيناها .. لؤلؤتان ليلتان تتظران زائر الليل :

- سيأتى الهر الليلة . سيقف عند الباب .. سيهزّ يده
لا .. لن ينطقها الليلة .. سأضربه .. سيصمت للأبد .. و.... أخذت
تلاعب خصلة من شعرها .. وتعليقات أم الشبية تتوالى فى رأسها :
- شوفى يا عائشة .. سابع يوم بعد العادة الشهرية ... تغتسلين .. و.....
و.. و.....

* * *

حفظت الدرس ...
سأغسل شعرى .. سأتركه مبللاً .. يجب أن أذهب إلى النفساء وهو
كذلك ... و...

- شوفي يا عايشة .. يجب أن يتقاطر ماء شعرك على فراش الوالدة .. و ..
اسحبي نفسك عميقاً

- آه ... آه ...

لم يسمع سوى الليل نهبتها المسحوبة من صدر حزين ... ورددت في
سرها :

سيتقاطر الماء وإن شاء الله سوف أحمل . ابتسمت لنفسها .. وتحسست
بطنها المشدود الذي لم يحتضن بعد طفلاً .

* * *

خالتي قالت لأم دهاش :

- ستكون عطايانا لك ثمينة لو حملت عايشة .:

وشفة البدوية انفرجت عن أسنان متفرقة صفراء .. والفرحة نطقت
بلسانها :

- أريد سلامتك يا أم خالد .. يا أم العطايا .. والكرم .

وردت خالتي :

- تستاهلين .. يا أم دهاش ..

وأنا ...

ألا أستاهل أن يكون لي طفل !! ولخالد أيضاً .. وخالتي الملهوفة على
حفيد .. ألا تستاهل أن تفرح : والأهل .. والأقارب .. و ... لكن : ألن
يؤذى هذا النساء أو المولود ؟ ! ...

لا .. قالت خالتي سنذهب لواحدة لا نعرفها

آه .. متى تأتي أم دهاش .. ويتقرر الذهاب ؟

تحسّست فاطمة رأس الطفل .. دافئًا لا يزال ... ارتعش قلبها .. سمّت
بالله ثلاثًا .. غطت سريره بطرحة من الشاش الأبيض . واستلقت على
ظهرها .. وفي نفسها أمنية كبيرة : أن يحفظ الله طفلها .

من الغرفة نفوح رائحة « النفاس » حلبة .. رشاد .. و«حسو»^(٥) .. وجسد
لن يستحم قبل الأربعين .. رائحة حموضة نفوح من ثوب فاطمة التي درّ حليب
صدرها فبلّله .. أمها تروح وتجيء في الغرفة ترتب المطارح والمساند .. وتقش
السجادة بخفة .. قبل أن يأتي الزوار .. والمهثئين .

حين أكملت عملها التفتت إلى ابنتها :
- هل أرضعت الطفل ؟

جاء صوت فاطمة مشحونًا بالأسى :
- حاولت للمرة الثالثة .. ولم يقبل ..
- ألا تزال حرارته مرتفعة ؟ !

- نعم .. وقد أفرغ كل الحليب الذي رضعه هذا الفجر ..
اقتريت أمها .. جسّت جبهة الصغير ، نظرت لابنتها في محاولة لتطمئنها :
- لا تقلقي .. ليس له إلاّ العافية .. ثم اتجهت نحو باب الغرفة .. يتباعد صوتها
معها :

- سأعدّ لك «عصيدتك»^(٦) تأكلينها قبل أن يأتي أحد
قبل أن تكمل جملتها كانت يد تطرق باب البيت .

* * *

دخلت أم دهاش .. تتبعها عائشة بخطى مرتجفة . رحبت أم فاطمة بالدلالة

بحرارة تعودتها .. ومدت أطراف أصابعها إلى عائشة بينما ينطلق سؤال من عينها
لأم دهاش « من هذه ؟ »

وضّحت أم دهاش حين فهمت سر النظرة : ... قابلتها في السوق . تبحث
عنى .. لها عندى حاجات .. طلبت منها أن ترافقنى لأطمئن عليكم ما دمت
قرية من البيت ..
واستدارت لعائشة لتؤكد :

- حبيبة و بنت ناس ...

رحبت أم فاطمة بينت الناس :

- يا هلا .. ومرحبا .. تفضلا ..

لكن شكًا لاح من عينها .. واشتعل وسواس حارق في فؤادها .. فتعوّذت
من الشيطان ثلاثًا . كانت أم دهاش تسبقها إلى غرفة فاطمة . وعائشة تتبعها
بتأقل .. ووجل ..

- بسم الله الرحمن الرحيم ...

بسمت أم دهاش وهى تضع قدمها اليمنى عند عتبة الباب .. وهكذا فعلت
عائشة ..

اخترقت الرائحة صدرها .. وتمنت :

- متى تفوح عندنا مثل هذه الرائحة ؟؟

* * *

مالت الدلالة على رأس فاطمة .. قبلته .. وابتعدت لتتقرب عائشة .. تفعل
ما فعلته رغم عدم معرفتها بالمرأة ..

« يجب أن يتقاطر ماء شعرك على الوالدة حتى » وانسدلت جديلتان
رفيعتان .. امتدتا كنهين يضيقان عند مصيها و.. تقاطر الماء
تفتت أم دهاش بارتياح
- تفضلا ..

دعتها أم فاطمة للجلوس لكن أم دهاش اعتذرت :
- أنا مستعجلة .. وعائشة لها عندي بعض حاجات و.....
نقلت بصرها بين وجه أم فاطمة التي تقف وسط الغرفة ووجه عائشة خشية أن
يكون انفعال ما قد رَفَّ على وجه العاقر .
حين اطمأنت .. التفتت إلى فاطمة في مرقدتها :
- لا إله إلا الله .. أنت اليوم أحسن من الأمس . سحبت عائشة مودعة ..
ورافقتها أم فاطمة إلى الباب .. وما أن عادت حتى أشعلت البخور ، وأخذت
تدور في الحجرة .. تُبَسِّمُ .. وتتعوذ من الشيطان .

* * *

مات الطفل ...

بعد ثلاثة أيام من زيارة عائشة وأم دهاش .. ظلت حرارته مرتفعة .. ورفض
صدر أمه .. حتى ودَّع في ذلك الصباح ..
أم فاطمة حلقت أمام النساء الموسيات بأن الطفل كان بصحة جيدة .. حتى
دخول أم دهاش ورفيقتها . وبكت فاطمة بحماسة :
- حسدته المرأة ..

- وانبرى صوت إحدى الحاضرات :
- هل تعرفون تلك المرأة؟؟
- ردت أم فاطمة بأسف :
- لا والله .. ليتنى أخذت من أثرها ...
- وألحت المرأة :
- إوصفها لى يا أم فاطمة .. فقد أعرفها ..
- ووصفت أم فاطمة المرأة .. طولها .. لون بشرتها .. و.. كأنها تذكرت :
- وعلى جبينها شامة كبيرة ناتئة .
- وشهقت المرأة :
- حسبنا الله ونعم الوكيل .. هذه عائشة كنة أم خالد .. وهى عاقر ..
- ثم التفتت لفاطمة مستفسرة :
- هل المنحت عليك؟؟ هل تقاطر ماء شعرها على صدرك؟ هل سحبت نفساً عميقاً؟؟
- هزت فاطمة رأسها بالإيجاب فانحدرت الدمعة الواقعة على وجنتها ..
- وتنهت المرأة :
- ياويلها من الله .. لقد كبستك .
- وصرخت أم فاطمة :
- ياويلها .. ويا ويلك .. منى يا بدوية النحس .

* * *

لم تعد أم فاطمة تفكر بالطفل الذى مات .. انصب كل همها .. وتفكيرها

بالطريقة التي تفك بها الكبسة عن فاطمة .. التي قد لا ترى وجه طفل بعد اليوم .
قالت تخاطب نفسها :

- غدًا .. أذهب عند « أم الشبية » عندها يكون الحل .. والدواء .

* * *

-
- (١) الدوة : منقل الفحم .
 - (٢) خالتي : أم الزوج في منطقة الخبيج تدعى خالة .
 - (٣) الجاثوم : الكابوس .
 - (٤) حلتيت ، ديرم ، علك : أشياء تستخدم قديمًا .
 - (٥) حسو : دواء خاص للنساء .
 - (٦) عصبدة : طعام يصنع خصيصًا للمرأة النفساء وكذلك « القَبُوط » وتكثر فيها الحلبة .
- الكبسة : هي الهجمة فجأة .. و« المكاييس » الذين يكثرون كبس بيوت الناس . و« المكبس » من يقتحم الناس « فيكبسهم » .
- عن كتاب : مع ذكرياتنا الكويتية : المؤلف : أيوب حسين .

الشمس وضحاها ..

سبق ذهني جسدي إلى هناك .. شوق عارم أحاطني وضيق على . كنت قد اعتقدت بأن العاطفة التي بيننا قد اهترأت .. وأن ذلك الحجر الطويل الذي فرضه علىّ قد وأدكل عاطفة ممكنة .. لكنني في اللحظة التي فكرت فيها أن أفرّ - أن أهرب حاملة كل الشجن . أن أحرث كل التراكبات المزروعة حول أيامي ، المحيطة بحياتي كأشجار غابات .. جافة تحدشني أفرعها .. وتزويني سيقانها تحت أكوام الأوراق المتساقطة . اليوم ... سأفرغ الشحنة .. سأجعل عواطفني المحبوة تحت جلدي تنطلق .. سأتمرد على الركود والبلادة .. سأمسح الوجع الذي استفحل دون رحمة .. سأهب كشرارة تعرف أين تسقط أين تضىء .. هناك .. ذهني يسبق جسدي .. أتبعه آكل المسافات .. قدمي طائرتان .. ولي أجنحة قوية ودون أن أدري كيف وصلت .. وجدنتني أمام الباب المهجور .

أولجت المفتاح بثقب الباب .. لم أجد صعوبة في ذلك رغم أن الأشياء إن هُجرت تصدأ .. كأن الثقب ولهان .. محتاجًا لعناق .. منتظرًا للحظة كهذه ، حين لويت المفتاح أصدر أنينًا كأنه يستغيث .. كأنه يتألم .. كأنه يهمس : إنني

عاب عليك ... لقد هجرتنى طويلاً .

حين دلفت بوجهى كان الظلام يحيط بالمكان .. فى الخارج شمس تسبح
 الله .. وتضىء .. وهنا .. الظلام محقق بإصرار .. يندى تتحسس مكان النور ..
 تلقاه كأنه ينتظر .. فجأة ! شع الضياء .. فاحت رائحة الأشياء عطور عشق
 قديم ، وذكريات مبعثرة .. وتوارىخ مدونة على كل وجه .. روائح ألم قديم
 عشته .. تحسسته داخل صدرى .. وتحت جلدى .. ألم أحبيته ، وأحبه ..
 جئت لأجل أن أجدد ولائى له .. استنجدُ به أن يعود .. وبلا صقنى ليحرك
 البركة الآسنة ، لأعرف طعم اللحظة التى تنخر فى لحمى .. وتنطلق بعد ذلك
 إجماعات وحركات .. وتعايير .

ارتيمت على الأريكة التى لا تزال تحمل رائحتى منذ آخر مرة ، احتوتنى ..
 حضن أمى أريكتى .. تنعش مفاصلى .. أسترخى عليها .. أبللها بعرقى .. وأريح
 رأسى .. أترك الحرية لعينى تدوران .. تمارسان هوية السفر هنا .. وهناك ..
 تطلعت إلى الحوائط تبسم .. كلها تبسم .. فجأة نبتت لها عيون ، وثغور ..
 وأسنان .. وآذان مترقبة .. وأذرع تمتد .. تعانقتى .. ذراع يرمينى بعد إفراز شوقه
 للذراع .. وصدر يروينى ثم يهدينى لصدر .. الحوائط لا مكان فارغا فيها .. كل
 أحلامى .. وذكرياتى .. حكاياتى الطفلة التافهة .. الجادة .. كلها عليها ..
 وأوجه كثيرة .. يتلاعب فوقها الضوء . بعضها يحمل فرحه .. وبعضها مكتئب
 لا يزال تحت وطأة الحزن .. وجه أمى الذى لم يعيش طويلاً .. وجه جلدتى التى
 كانت حانية .. ووجه ريماء الطفلة التى كانت ترتاح على ركبتى فى طريق العودة
 من المدرسة .. كانت السيارة تضيق بنا .. وبينات الجيران اللآئى كنا نصطحبن
 معنا لنوصلهن إلى بيوتهن .

وجه ريمًا وحده ظل في ذاكرتي .. كنت أيامها بعد صغيرة لكن حلمي
 ظل يتلاعب بالمرج المفتوح .. حين أكبر وأتزوج .. سأحب طفلة مثل ريمًا ..
 نشهها .. وسأسميها باسمها . وريمًا اختفت فجأة ! غادرت وأهلها إلى بلدة
 أخرى .. وظل وجهها موشومًا في ذهني .. هو ذا .. أمامي الآن .. يالوعة
 الذكرى ... وجهها أيضًا يتسم .. يحضن وجهي كأنه يرحب به وكل شيء على
 الحوائط مما فاضت به روعي من معان . ويكل ماجادت به ريشتي من
 لمسات .. كله يتسم يدعوني أن أتحرك .. أن أمنح خيالي أجازة .. وأسوح في بحر
 واسع ألتقط منه .. وأرسم ... أسجل كل الأحداث التي مرت طيلة السنوات
 التي همجرت فيها مرسمي .. أضيف لتاريخي القديم تواريخ وأشكالاً .. هو ذا بيتنا .
 القديم - قلعة زندا - ذلك هو الشباك الوحيد الصغير المطل إلى الشارع .. كان
 ذات يوم نافذة اللجنة التي رأيت فيها وجه كرم .. في تلك القلعة الصلبة ..
 عرف قلبي الحب .. وسجل كل لحظاته هنا .

تولد الذكريات .. أرتعش .. في مقعدى ظللت مسترخية . شبه صداع بدأ
 يحبو من أسفل الرأس .. يتسرب شيئًا فشيئًا .. الوحدة المحيطة بي لها صوت ..
 أسمعته أنتشى قليلاً .. هذه الوحدة ملاذى .. إنها ترحب بي .. فلم لا أستغلها ..
 أن أفعل شيئًا .. قفزت .. سحبت فرشاتي .. ووعاء الألوان .. استعرضت
 اللوحات المعلقة على الجدران .. أين أجد مكانًا لأمارس عليه رغبتى ؟؟ ..
 عيناي اصطدمتا بوجه العجوز .. وجه رأيتهُ يومًا ما عند باب الجامع ، كنتُ
 أحمل « روبيتي » اليتيمة هارعة إلى دكان السيد لشراء بعض الحاجات
 الخفيفة .. لمحتها عند حائط المسجد متكومة . عينها البارزتا الجفون وماؤها
 الأزرق الذى أعلن وفاة الشباب فيها أخافتانى ، يدها تشد على فها بطرف

عباءتها الممزقة .. حين قدمت لها الروبية وسحبت يدها بان فيها الأدرد إلا من نابين صفراويين . ولسان أحمر عريض .. نظرت إلى الروبية .. تحسستها ثم ألق بها وصرخت في وجهي :

- تسخرين مني .. تعطيني حديدة .

هلع قلبي .. ابتعدت بعد أن انتشلت الروبية التي انغرس نصفها في التراب . هرولت مبتعدة ووجهها قد حط في رأسي .. ذك نفسه بعنف واستقر رغم كل محاولاتى أن أفظه .. كنت أخشى أن يزورنى في الليل ويفسد على راحتى .. لكنه ظل حيا .. ولم أتخلص منه إلا حين قذفته ريشتى إلى اللوحة .. وجهه أكرهه .. لذلك أمسكت باللوحة التي تحمله .. أنزلتها إلى الأرض ، علقنت لوحة خشبية .. جهزت الألوان .. أى لون؟؟؟ فى الخارج . ينتشر الضحى .. وشمس الضحى جميلة . لا هى نار موقدة .. ولا لوح ثلج .. لا هى قاسية .. ولا حانية كل الحنو .. لا هى غاضبة .. ولا مبتسمة .. شمس لا تعرف الكدر ولا اليأس عروس تجمع حولها الولهات إليها .. إلى - شأى الضحى - جلسات المودة ، والهرب من متاعب كثيرة .. حلقات .. وأحاديث يصير فيها الضحى كأمسية سمر .. والضحكات ثغور نجوم وابتسامات قر .. ضوء شمس الضحى يتسرب إلى روحى المظلمة .. إلى أزقتها الموحشة .. اللون الأبيض . هكذا قررت ... ومسحت على وجه اللوحة . صار الفضاء أمامى ناصعاً بلون قلب مولود لم تصفحه الأيام .. شىء من الأزرق الفاتح .. مسحة قليلة .. وشمس الضحى تتربع فى قلب النهار .. أبتعد .. أتأمل اللوحة .. كأن الشمس فيها ترقص .. اللوحة كلها تتحرك بين يدي وأنا أعود إليها أفرغ لمسات ولهى وعشقى

عليها . ينتقل صفاؤها إلى . أحسه يطحن أطنان العذاب التي حملتها معي
وأتيت هاربة من لحظة جداله المر .

- أين ستهبين ؟؟

- صديقة عزمتني على «شاي الضحى» .

- تقصدين شاي النسيمة والنقد اللاذع .

- سمّه كما تشاء .

- لكنك تكرهين إضاعة الوقت !

- لقد ضاع عمري .. ما يهمني لو ضاع الوقت ؟؟

عيناه انغرزا في وجهي . تتساويان وعيني نمر يلهث وراء فريسة .. وأنا

الفريسة التي وافتها أنفاسها أخيراً .. وشجاعتها لتقرر أن تبدأ من جديد ..

تتحرك .. تخرج .. لكن صوته الكالنج شق أذني :

- إذا طلبت منك ألاّ تخرجي ...

- سأرفض طلبك .

- وإن رجوتك ؟؟

- سأهمل الرجاء ..

- وإن أمرتك ...

- سأعصى الأمر ...

- وإن استخدمت سلطتي عليك ؟

- سألعن سلطتك .. وسأكسر قيودي .

- تتحديني !

- بل أتحدى ضعفي .. لقد مللت .. لقد اكتفيت .

فاض على وجهه استغراب .. هولا يصدق أن الفريسة التي فاضت روحها منذ سنوات طويلة تعود لها الروح .. أنا نفسي لم أكن أصدق . كيف وُلدَ هذا التحدى بداخلي ؟ كيف نما دون أن أشعر به .. وكيف تَوَاتيه الشجاعة أن يتحرك معي .. بهذا العنف ، يستفزني فأهاجمه وكأنني صرت الحيوان الكاسر ، وصار هو الأرنب المرتجف .

- لو خرجت تكوينين طالقًا بالثلاث .

- آه كم تمنيت أن تطلق روحي .

- أو .. أقتلك

استدرت إليه بكل القرف الذى أحسه . خاطبته :

- هل تظن أنك بعد لم تفعل ؟؟ لقد قتلت الفرح بداخلي ! عرّيت أشجارى الخضراء .. حوّلت زمني خريفًا دائم الصفرة .. حرمت وجه النهار أن يصفح وجهي .. وشمس الضحى أن تدفئ أطرافي .. سأخرج .. لن يردنى اليوم شيء .. لن أهتم لما سيثار ويقال .. لقد اكتفيت .

لم ألو على شيء .. كان بداخلي سعادة ولدت ليلة البارحة حين تهادى صوته المقترّب منذ زمن .. استيقظ النوم فى كيانى .. كريم يعود فى الوقت المناسب .. كأنه يطرق باب القلعة التى صدا كل شيء فيها .. بما فى ذلك قلبي .

كيف جاء ؟؟ ولماذا جاء ؟؟ كيف نبع صوته فجأة يتحدى كل الركود كأنه يلتقى بالحجر الثقيل فى بحيرتى الراكدة فيتناثر ماؤها كأنه يقذف سهمًا إلى قلبى المتخشب أمرًا إياه أن يصرخ .. أن يتمرّد .. أن يرقص .. أن يطمح إلى لحظة يتكسّر فيها جليده .

فكرت ليلة البارحة : هل أبدأ من جديد ؟؟ هل أكرر قيودي التي تورمت
منها كل السنوات الماضية ؟ ! منذ تركت بيت أبي - قلعة زندا - متصورّة أن
لا قلاع غيرها.. واخترت أن أوافق أبي الذي قال مواسياً :

- هو كبير في السن . لكن « الشايب » يدلّل .
ارتضيت أن أخرج من القلعة .. ما كان يهمني إن كان عجوزاً يدلل .. أو
شاباً يعلل قلبي .. كنت أريد أن أجرب نوعاً من الحرية .. بعد أن حرمتني
حصون القلعة من وجه كرم .. يوم عرف أبي أن النافذة الوحيدة قد صارت
تأتي منها نسائم الحب .. أتسلق السلم .. أطل منها أتحدّث مع كرم في عزّ
القبيلة .. أهديه رسائلتي .. ويهديني رسائله .. ومنذ عرف والدي . قرر أن
يكمل سجنى .. أن يتخلص منى .. أن يهدينى بعقد زواج إلى رجل يكبرنى ..
وله أبناء بعمرى .. وقد ودعت أهمهم الحياة في كنفه .. وبقى هو رابضاً رغم
أمراض العرين .

قلعة زندا أخرى زفت إليها نفسى راضية .. وقد حسبت أن القلاع كلها قد
اندثرت ! هكذا كان على أن أبدأ .. أحمل موهبتى .. ألوانى ريشاتى ..
وأعلن له بكل الذل :

- هل أستطيع ممارسة عشقى ؟؟
ويشفتين لزوجتين قرر كأنه يمنحني صك السعادة :
- تستطيعين .. ولكن !!
عقدة حسبها لن تفك .. لكنه تابع :
- رائحة الألوان .. ترعجنى ..

- أردت أن أثير شففته :
- سأحس بالضيق .. وقد تعودت أن
- هزكفه المجدد :
- طيب .. في مكان آخر سأجهز لك مرسماً .
- في تلك اللحظة فقط شعرت نحوه بالحلب .. تهلل وجهي :
- أين؟؟
- في العجالة في منطقة سأخصص لك شقة لفوضاك .. وروائح ألوانك .. و...
- شكرته .. دفعت ثمن عطفه لحظة أحققها له .. لأحس بها لكنه يحتاجها .. وجهز لي المكان .. كنت أخرج إليه كل يوم .. أمارس أمومي المفتقدة على اللوحات . وأستجمع الذكريات .. والوجوه ... أحقق لها عودة إلى الحياة .. بعد أن رضت تحت تراب السنين .
- ليلة البارحة كانت قاسية .. أحسست شيئاً كالمح يتراكم داخل حلقي ..
- فقدت معه كل شهية لاستقبال الصباح .. وددت لو يمط الليل رداءه .. أن يبقى رغم وحشته أن يتركني في سبات . طويل .. ربما في الإغفاء بعض الراحة .. في حضن الليل نستطيع أن نفكر .. أن نحلم .. أن نقرر دون أن تكون هناك يد تغتال أحلامنا .. أو تقنص قراراتنا .
- صوت كريم الذي تهادي إلى سمعي بعد هذا الموات يدعوني للحياة .. يوحى لي بأن شيئاً ما عذباً يتدفق إلى شراييني .. إن دقته تبادر إلى جوف القلب .. تهزه تبلكه بالندى .. أرتعش .. أحس أنه لا يزال ذلك الطفل الرقيق الذي تهرع على أن صمته دغدغة .. إنه لا يزال برغم كل الثقل الموهن الرازح ، قادراً على أن يرقص .. أن يميل .. أن يرتاح إذ يلمح عيناً تسلط عليه نظرة حانية أو ثغراً

يشتهى أن يطبع قبلة ما على خدّه الأحمر ! قلبي يستفريق .. منذ تهادى صوت
كريم .. وكنت لا أصدق :

- أنت ؟

- نعم .. أنا ..

- ما الذى جاء بك ؟؟

- أشعر أنك بانتظار لحظة كهذه .

تصارعت هتافات بداخلى .. هل أقول نعم ! هل أرفض ! هل أنطلق إليه
بكل الحاجة التى أحسها ؟ أم أبقي ذلك الشيء الواهن المعلق ما بين الحياة
والموت ؟؟ هل أجد ميلادى ؟ أم أفتح قبراً لسعادة تأتى وأنا فى أمسّ الحاجة
إليها ! كيف جاء كريم .. ولماذا اتصل ؟ كان الزمن نهرًا يفصلنا .. نهرًا غرقت
فيه مع رجل استكثرت على الوعد .. وحرمنى بعد ذلك من مرسمي وسجن شهيتي
للحياة داخل قلعتي .. فنسيت أشكال الوجوه المعلقة .. وتضاريس البيوت
القديمة .. حتى بيتنا الطينى القديم الذى كان قبل أن يبني أبى القلعة . فهل
أغامر ؟؟ هل أقلف بجسدى إلى النهر ؟؟ هل ألحق بكريم الذى أحس به
شرارة الحياة وقد توقدت لتضئ ؟

ليلة بائسة مررت بها .. تقاذفتنى النداءات والصراعات . على أن أقرر .. أن
أختار .. أن أكون شجاعة ولو لمرة واحدة : أن أرفض هذا التخثر الذى حاوط
حياتى .. أن أرفض رجلاً لا يعطينى شيئاً .. يقتل كل رغباتى .. يجرمنى صداح
النهار .. ومتعة الليل .. يجرمنى أن أكون امرأة .. لها الحق فى أن تكون لها
احتياجات وأن تحقق تلك الاحتياجات .. على أن أحرك السكون أن لا أكون

مجرد حفيف ورقة في قلعة نائية... يجب أن أكون شجرة.... أن أكون شمس
ضحى مشرقة .

* * *

حين دخلت روحي عمق الليل .. ونامت .. لم أكن قد وصلت إلى قرار ..
لكنني في الصباح فوجئت بنفسى .. بالشجاعة التي حركتني .. فرفضت أن
أرضخ له .. أول ما فكرت به هو أن أهرب إلى مرسى .. إلى ذكرياتي .. إلى
الماضي الذي سجلته على الجدران التي تفرح بلقائى .. ثم أن أذهب إلى موعد
كريم الذي حدده .. أن أرتدى على صدره .. أن أبكى .. أبكى ... وأعلن
له :

- أحبك .. بكل العنف الذي يمزقنى ... أحبك .. بكل العذاب الذي
أمانتى .. أحبك .. برغم نهر الزمن الفاصل .
وبعد أن أسمع دقة قلبه . تعلن الفرح .. سأترك خيول الصمت تنطلق ..
سأعلن له :

- نعم .. أنا امرأة وحيدة .. أنا امرأة تحتاج إليك .. تريدك .. تريد كل الحياة
التي يمكن أن تفجرها حولها .. وبداخلها .. وبأعطافها الراقدة ..
الموحشة .. نعم يا كريم أنا امرأة في الريح وحدى .. وأنت : أريدك
الرجل ... البيت ... العشق الذي يرويني فقد جفت شرايبي .. تأكلت
رغباتي .. وحدك أنت ستعيد كل شيء .

حين تركته قابلاً في الفراش .. تلجمه مفاجأة التمرد .. لم أحس بأى شعور
بالذنب تجاهه . لقد أعطيته من عمري ما يكفي .. وأخذ من عمري ما يزيد ..

وقبل فوات الأوان يجب أن أحتفل بميلاد شمس جديدة .

غُصْتُ في ضوضاء النهار .. انني أحسها لأول مرة .. وجئت إلى مرسمي ..
 أرسم شمس الضحى .. وأعلن لها أنها بداخلي تولد .. تنفجر .. وحين اكتملت
 أمامي نفضت الريشة .. آويتها قرب علبة الألوان .. ودعت كل الوجوه .. كل
 الجدران .. ودعت أريكتي الوحيدة .. أسلمتها رائحتي .. وخرجت .. أذف
 نفسي لموعد كريم .

نسيتُ أنني هجرت بيتي في الصباح .. نسيت وجه زوجي المتكوم بعضه
 على بعض .. نسيت تهديده .. نسيت أن أسأل كريم إن كان قد عاد ليحقق أملاً
 خابَ أبي .. ونجبتُ .. وخاب زوجي أن يحققه لي ... كل ما كان يُهمني أن
 أنطلق .. أن أحمل مفتاح مرسمي الذي حرمني منه .. أن أدخل المفتاح المشتاق
 إلى الثقب المهجور ، وأنفَس رائحة ألواني ... وأرسم شمساً تشرق من جديد ..
 ثم أهرع إلى كريم .. أعيد الانتعاش إلى روحي التي وارى فرحها تحت الجروح
 والحرمات . أن أبدأ من جديد . أترك للعشق أن يدخل من الأبواب المشرعة ..
 أن يعيدني إلى ساحة الفرح .

في صالة الفندق الكبيرة بحثت عنه .. قال إنه سيكون بانتظاري .. حدد لي
 ساعة معينة : انتهت إلى أنني ألغيت الزمن حين ارتيمت في أحضان المرسم ..
 نظرت إلى الساعة ... ياه .. موعدنا كان في العاشرة .. الوقت الآن الواحدة
 والنصف ! كيف مضى الوقت ؟؟ .

* * *

تلفت .. جالت عيناى تستعرض الوجوه وجهًا ووجهًا . لا ... لا وجه بين
الوجوه هو وجه كرم .. لا بد أن أسأل .

واقتربت من موظف الاستعلامات ؟ ابتسم .. لا أدري لماذا ابتسم .. التفت
وراءه .. يده على ذقته .. وهو يتابع أرقام الغرف .. عند الرقم ٥٠٣ كانت
ورقة صغيرة ترقد بجانب المفتاح .. استلها بأنامل رقيقة قدمها لى :

- انتظرك .. ثم ترك لك هذه الورقة .

- أين ذهب ؟؟

- غادر إلى مقر عمله فى لندن . كان قد جاء ليوم واحد ا

شفتى سيف حاد .. ترنحت قدماى .. جف بجلقى كل بلبل . تهاويت على
أقرب مقعد .. فتحت الورقة .. لطمتنى الكلمات القليلة .. تبدو حانية ..
صادقة .. كان يوذ ... كان يوذ .. كان يوذ ... وأنا التى تأخرت أنا التى
ذهبت لأرسم شمس الضحى المشرقة .. وشمس الفجر الذى تنفست فيه
أخيرًا أنا التى انتظرها أخيرًا ليراها بعد تلك السنوات الطويلة .. ليعرف
ظروفها ليضعها فى قلبه .. الذى لا زال يحمل وجهها ويحفظ رسائلها أنا التى
تمنى أن تهجر كل شىء عداه .. وتأتيه بنفس كمية الشوق التى يحملها .. وأنا ..
حملت نفسى إلى هناك وأضعت الفرصة .. خيبة جديدة تصفنى فى أول نهار
تُشرق فيه شجاعتي .

ثانية .. عدت إلى مرسى خائبة ... كل شىء معتم .. الوجوه على الحوائط
عمياء .. بلا عيون .. جدعاء بلا آذان خرساء بلا ثغور ولا ألسنة .. ولا شىء
يرحب بى .. تهاويت على المقعد الذى ودّع جسدى قبل زمن قصير . شعرت

وكان دبابيس قد نبتت في جوفه .. تطلعت إلى اللوحة التي لا زال عرقها
طربا .. أين الشمس التي رسمتها ! كان الضحى .. ذلك الفضاء الناصع قد
ارتدى ثوب حداد ، والشمس صارت قمرًا ذابلاً تتقاطر من وجهه دموع ..
سالت .. وأغرقت اللوحة .

بدأ المكان يضيق .. يضيق .. أحس بأننى خيط .. رفيع .. تهزه ريح
صَّصَّر .. وأمامى ثقب الإبرة إما أن أندفع إليه .. وأدخل .. أو .. أبقى هكذا
معلقة في الهواء .

هل أستطيع أن أبلل نفس وأنفذ من الثقب ؟ هل حقاً أنا قادرة على أن
أحدّد معالم الطريق لأعود إلى الثقب وأدخل نفسى فيه ؟؟؟

لا الشمس وضحاها قادرتان على منح بصيص من النور .. ولا الشبايك
المغلقة المرتدية حزنها تسمح بجيِّط نور يقتحم المكان .

أغمض عيني بداخلها كان وجه المعجوز الأرد .. وكان وجه ريمًا ،

* * *

روبيى : الروية - العملة الكويتية القديمة ،

المدينة .. الحلم ..

انتهت رحلة السير ، اللهاث ، والتعب .. والآن .. انظر هناك .. ستبدأ
رحلة اكتشاف لهاتين المدينتين المتنافرتين ..
سَجَل تاريخ البدء .

ذات يوم سجلت التاريخ الذى أحبيتك فيه .. كم مضى من الأيام ..
الشهور .. والسنوات ؟؟ لا تقلق فإزلت أحبك .. وما أزال رفيقة الدرب
والرحلة .. أتق الآن أنك من يستحق أن يشاركنى هذا السفر الطويل ومتعة
الاكتشاف .

حين نعود .. سنحكى لناسنا أحلى القصص .. قد يصدقون .. ثم يحاولون
الارتحال حيث رحلنا .. فالتجربة متعة .. هل تعرف ما الذى سيحدث
بعدها ؟؟

لا تندهش . صدقنى .. ستحدث الفرقة .. سيتقاتلون . ما علينا الآن ..
ها نحن نقرب .. انظر هناك .

* * *

المدينتان تلوحان ..

- هل أنت خائف؟
- أجهل ماذا هناك .. والجهل أب للخوف .
- معي ، لا تخشى شيئاً .. سأسئلك .. سأقدهُ زناد الذاكرة تنتفضُ سنوات
- الطفولة .. والصَّبَا التي أحسها مرّة .. كزخة الماء البارد حين تشتد حرارة
- العالم حولي .. فأستدرّها .. أتبلل بها .. ومرّة أحسها كالسوط تجلد
- ضلوعي .. تعذبني .. فأتمنى لو بُحْتُ لها حتى للهواء .. وحين أُهمُّ بذلك ..
- أترجع .. أخشى أن تفرّ مع الريح الصارخة إذا انفلتت من سجنها الدفيء .
- أ أن تحاصم ذاكرتي ولا تعود ..

هي فرصتي الآن وأنت معي .. أن أسجلها هنا .. عندك .. فهل تملك
ذاكرة قويّة ؟؟ .

- يشهدون لي بذلك .
- إذأ .. اتفقنا . لو فقدتني يوماً فاستخرج هذه الحكايات . حدث الناس
- بها .. أحب أن يعرفوا كل شيء . انظر ..
- ماذا هناك بالضبط ؟؟
- ستعرف كل شيء .. هنا .. وهناك .. بعدها ستختار أين تنام .. وتبقى ..
- وتعيش .. فلا تسأل قبل أن نخطو الخطوة الأولى .

* * *

«حين نخطتُ قدماي خطوتها الأولى .. دُستُ على موقد النار في بيتنا
المهادئ . في ذلك الحى الذى دفنوه الآن تحت هياكل الأبنية الحديدية المترفة .
لقد قتلوا كل ذكرياتنا .. وماضينا .. لم يتركوا لنا شيئاً .. نهبوا حكاياتنا المرشوشة

على الجدران .. وأحرقوا بقايا البخور الذى كان يفوح فى ليالى الأعراس ..
والأعياد . دفنوا مواقدنا التى لم أكرهها حتى عندما أحرقت نارها قدمىّ
الناعمتين .

يومها ربطت أُمى قدمىّ بالحُرق البالية الملونة .. بضع فضلات من أقشة
تخطيطها للجيران والأحباب .

كانت على موعد لتقيس لأحداهن .. حملت « بقشة » الثياب ونظرت إلى
وجهى . قالت بحسرة :

- المسافة بعيدة ..

- أبقى فى البيت يا أُمى ..

- وحلك : لا ..

هلعت أُمى .. ثم قالت بحزن :

- سأضطر لحملك كل الطريق .

خيلٌ إلىّ أننى أحببتها كثيراً تلك اللحظة . وأشفت على جسدها النحيل من
أن يحملنى حتى وإن كنتُ طفلة تزحف نحو سنواتها الست .
قلتُ لها :

- دعينى أمشى .. لا يؤمننى الحرق .

وكاننى سمعتها تمس :

- بعض الألم يعيق الخطو .

وكاننى صرخت فى داخلى :

- لا .. بل الألم يدفع إلى الجرى .. كلما دسنا على موضع الألم قتلناه .. ومات

الإحساس به ، فتمشى .. لا تكثرت .. وسأمشى هذا الطريق .
لكنَّ كنف أمى حملنى .. وحين وصلنا أنزلتنى وقالت هامة :
- أرجو ألا يعوقك الله يوماً .

* * *

أنظر إليك الآن .. قدمائى صلبتان .. أنت بانتظار الخطوة الأولى .. إلى
المدينة الأولى .. ثم الثانية .. وأنت معى .. رضيت أن ترافقنى .. أن تحببى ..
لا يضيرك أن تجازف .. وتسلل بالطبع .. سأفكُّ عقدة لسانى .. قلت لك
سأحدثك عن سنوات مرّت وسيكون الطريق أمامك قصيراً .. ممتعاً .
هو ذا الطريق .. المدينتان تلوحان .. متناقضتين ، والخطوة الأولى ..
كخطوة الصبا المتعشة أيام الربيع .

* * *

« أيام الصبا أحببت لأول مرة . كنت بعد لا أعرف كيف أتعامل مع الرجل
الذى أحبه .. نظرات .. خجل .. ثم نظرات .. وابتسام .. ثم نظرات .. ولقاء
أصابع مرتجفة .. ثم نظرات ورسائل قصيرة ملونة أشتري ورقها من مصروفى
المدرسى وأدسها فى يده كلما التقينا .. ثم نظرات .. وأمنيات تداعب القلب ..
والجسد أن يرتدى فى أحضان الحبيب ليدخل التجربة الأولى .. ويتعرف على
الحب بشكله الآخر . لكن المستحيل كان .. أين نلتقى ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وعيون
الناس كلها تدنجر لحظاتها لترصد .

فشلت فى أن أكون حبيبة كاملة .. والرجل يريد .. وأنا لا يهمنى .. فالقلب

الصغير يجب مرات .. ومرات .. وحين يكبر يجب مرة واحدة فتكون التابوت الأبدى» .

- ما بالك تنظر إلي هكذا؟؟
- تقولين أن الحب هو التابوت الأبدى !!
- أحببتك أنت .. تلك هي المرة النهائية .. أعني .. أموت وأنا لك وحده .. أنت الأبد بالنسبة لي .. هل غضبت؟؟ .
- لا .. ولكن كانت تلمحك بعض النصائح وأنت صبيّة ..
- كانت أُمى تفعل ذلك .. تلالُ النصائح والتوجيهات تتراكم في رأسى .. أكرهها .. أضيّق بها .. وعندما كبرت اكتشفت أنني قد استفدت من تلال الحب التي كنت أتصورها تلال حصار لأهوائى ورغباتى . وأمنيائى الخضراء .
- فشلت في أول حب .. عشت على أمل أن أحب للمرة الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، حتى يجهز التابوت ..

- مصرة أنت على التابوت كأنك ميتة .
- أول مرة رأيت فيها ميتًا ممددًا على الخشبة المبللة بالماء .. كان ذلك حين عدت من المدرسة .. رأيت شارعنا يفض بالرجال .. وبالخزن .. وحين أردت أن أقطع الطريق إلى بيتنا نادى باسمى أحد الجيران :
- اذهبي من الناحية الأخرى .

لكن الفضول دفعنى إلى أن أسد أذنى .. مددت خطوى واقتربت .. فاجأتنى جثة جارنا على الحامل الخشبي .. أصابتنى زعدة ما صحوت منها إلا حين

- صفعنى كف الرجل الذى امرنى بأن أبتعد .. صرخ فى وجهى :
- ألم أقل لك اذهبي من الناحية الأخرى ، هيا إلى بيتكم . لكن القدم لم تحملنى .. والرعدة المسعورة انتهكت صمت كل شيء فى داخلى .. أشفق علىّ الرجل .. وحملنى .. لم أكن طفلة يوماً .. فكان لذاك الحمل تأثير على جسد الصبيبة .. كانت للرجل رائحة غريبة .. لكنها ممتعة .. يوماً ظلمت أحلم برجل يحببى .. وحملنى .. ويتشلنى من أية لحظة رهيبية . متمردة إلى حيث الأمان .. إلى مدينة تكون لى وحدى .
- سأحملك .. وهيا .. لندخل إلى المدينتين .
- لا .. حملتى كثيراً .. واختملتنى .. أريد أن نخطو معاً .. خطوتك تتناغم مع خطوتى .. نمضى سوياً .

* * *

انظر ...

هى ذى المدينة الأولى .. هادئة .. موغلة فى أحلامها . تستطيع أن تخلع حذاءك .. أن تمشى عارى القدمين فتلامس العشب الناعم البظيف والترية الرطبة .. الأرض محناة بحنان أخضر .. رائحتها تشبه رائحة اللبن أول فورانه .. فى سمائها ترفرف حمام بيضاء كرايات مولودة للتوفى قلب غيمة .. تستطيع أن تنام عارياً رغم برودتها .. لن يلسعك بردها .. تدفئك أحلامك . وفى الصباح تستيقظ على هديل الحمام يرفرف مسالماً حراً مغروراً بالفضاء النظيف .

والآن .. انظر إلى الناحية الأخرى .. ماذا ترى ؟؟

- الله .. تلك مدينة رائعة ! !
- بالضبط .. إنها تنبت كعشبة أبدية .. تتفصص كامرأة في لحظة نشوتها ..
- لا تثقل جمالاً عن الأخرى .. لكنها
- أجل .. تختلف .. تلك هادئة وديعة .. لكن يبدو أنها مملّة كذلك .. أما
- هذه .. يفوح صراخها .. صخبها .. تبدو مثيرة تستنفر الفضول .
- كأنها مدينة من الورق .. هشة .. يجيل إلى أنني لولمستها يديّ لتناثرت .
- لكنها مغرية .. أراها مكتظة .. صارخة .. يبدو أنها لا تعرف النوم ...
- ولا الراحة أيضاً ..
- لماذا لا ندخل تلك المدينة الصاخبة أولاً؟؟
- هل تحب أن تموت قبل أن ترى الأخرى؟
- هل هذا تخويف ! أم حقيقة؟؟
- الموت هناك يترصد البشر ! ولو حدث ومُتَّ فمن سيحمل جثتك ؟ من
- سيسترها ؟ من سيصلي عليها؟؟
- الناس !
- الناس هناك لا يعاونون إلا بأنفسهم .. والموت يأتي من رصاصته ! والجثث
- تغطي الأرضة .
- لكنها مغرية .. وتلك المدينة تبدو موحشة .. صامته .. لا أرى فرصة لانبثاق
- النور منها .
- نستطيع أن نخلق النور .. أن نضيء شمعة .. تلك مدينة تعودت أن تهدأ ..
- تنام .. تحلم .. مدينة قوية طبيعية عروقتها في الأرض .. ورأسها نحو
- السماء .. تلك مدينة صلبة منذ قررت أن تكون كذلك .

- إذن .. تفضلين أن ندخلها أولاً .
- بالطبع .. وسترى الأخرى بعد ذلك - وإن رَحِمْتِكَ السماء ولم تُمِتْ ..
ستختار أين تبدأ ثانية .
- هل نحتاج لشيء معنا ؟ أقصد .. سلاحًا .. مؤونة ؟
- يا عزيزي .. هنا .. لا أحد يجوع .. الكل يجد له طعامًا .. إنهم لا يتقاتلون
لأجل اللقمة .. لأنها تأتي وتوزع بالعدل .
- خيمة تستر تحتها !
- ستجد الأمان أينما حللت .. حتى لو نمتَ تحت ظل شجرة .
- شيء تنسلي به
- هذه المدينة مليئة بالألعاب المسلية ... وفيها أطفال سعداء ... سنلهو معهم
ستنسم من ابتساماتهم عطر السعادة .. تحسهم بلاعاهات .. بلا عقد ...
فرحين يعيشون في سلام دائم .
- هيا .. اقتربنا .. الحشائش تلتمع .. تغريك بالنوم .
- ولكن ! هذا الصخب الآتي من هناك ..
- صخب المدينة الأخرى .. لا تخف .. سيقلقك لفترة صوت المرح والرقص
محتللاً بأصوات الجوع .. والرصاص .
- انظر .. هناك حديقة من الرمل الناعم .. مثلها كثير .. إنها متاريس تحمي
الأطفال .. وتمنع الشر .. فلا تخشى أن تصيبك رصاصة قناص ..
الرصاص لا يخترق الرمل .. المدينة محصنة .. أهلها لا يخيفهم الرصاص ..
ولا ألسنة النيران المدلعة .. تمامًا كما لا تغريهم صيحات الرقص .. وروائح
البضائع النادرة :

- أنت تعلمتني ..
- وستنام هنا .. مطمئنا .

* * *

- جسدى يتشرب برودة الأرض .. عيناي تجولان في عالم أخضر .. الشجرة
الباسقة تمنحني شيئاً من الأمان ونحن نسترخى عند ساقها العريض .
- ترى ! كم من السنوات عاشت هذه البقعة الخضراء ، وهذه الشجرة ! كم
من الأطفال عبثوا سعداء تحت ظلها ؟؟
 - إذا كان أطفال المدينة آمنين كما تقولين ! فآلاف منهم رتعوا تحت ظل
الشجرة .
 - سقطت ورقة على وجهي .. سحبتها .. تأملتها . خطوطها منسقة .
 - انظر كيف خلق الله هذه الورقة كيف نسقها وبعث بها الحياة .
 - الأوراق تموت حين تسقط .
- « كنت أعيد الحياة للوريقات المتساقطة .. يوم أحيت رجلاً كنت أجمع
أوراق الشجر في كل مكان زرتة .. وأكتب عليها اسمه .. وتوارىخ لقاءاتنا ..
وأضعها في كتاب حتى تجف .. تموت عروقها .. لكن لونها الأخضر يبقى ..
ويبقى الاسم وشماً دائماً . »
- أين تلك الأوراق الآن ؟؟
 - يوم أحبتك أحرقت كل الأوراق القديمة .
 - كان من الممكن أن تنسقى تلك الأوراق كذكرى .. كنوع من الديكور ..

- ليس سهلاً أن تنسق الأوراق الجافة .
- وكذلك البشر ، كُلُّ له طبعه .. ومزاجه .. وأحلامه .
- آه .. لو نسَّقوا صفوفهم حقًّا .. لغمر السلام أنحاء الأرض .. انظر إلى هذه الشجرة .
- ساق ضخمة تحمل كل تلك الأوراق .. ربما آلافًا .. ملايين .. من يدرى .. هل نعدّها ؟
- إن ما يدهشني حقًّا .. ليس عددها .. بل تألقها .. كل هذه الأوراق تستمد الغذاء والقوة من هذه الساق ، وأتساءل .. لماذا لا تجمع هذا العالم ساق واحدة !
- أمنية .. بعيدة المنال .. ها أنت ترين مدينتين مختلفان :
هدوء .. صخب .. سلام .. حروب .. ومن يدرى ! لم تحدثني بعد عن تلك المدينة .
- ستدخلها .. وترى بنفسك .
- أحب أن أسمع .
- أخشى أن تغريك .. فتفر الآن من قرى باحثًا عن المتع .
- إلى هذه الدرجة ؟؟
- أجل .. هنا . كما قلت لك .. لو نمت عاريًا فستدفئك أحلامك . ولكن هناك .. لا بد أن تلبس الحرير .. وتتعطر .. المدينة الكرنفالية ترفض من لا يساير أهواءها ..
- أليس الإنسان حرًا يلبس ما يشاء ؟؟
- لا ! أنت مقيد .. عليك أن تحب أشياء كثيرة تكرهها .

- أنا لا أحب إلا النساء .
- لا عجب في ذلك ... تلك مدينة الخمر .. والنساء .. والرصاص ..
- ونساؤها .. هل هن جبال خاص ؟؟
- جميلات ! لكنهن غادرات .. قد تكون المرأة خنجرًا يندس في خاصرتك لحظة انتشائك . وتتصور أن في داخلك كثرًا .
- والخمر ! إنها تفرج الكرب أحيانًا ..
- ستشرها .. وحين تفيق ستفاجأ بأن أصابعك قد سرت .. أو ... ربما لا تفيق .
- هناك ينفجر نهر الزمن في لحظة .. فيترف دمًا أحمر ! وتنسى المرأة ..
- والخمر ... والرقصة اللذيذة .. والحرائر .
- أحمل سلاحًا .
- لن يفيد ! يجب أن يكون لك ناب .. ومخلب .. وقبضنة مصارع تسدها إلى الخطر الذي يأتي فجائيًا .. أما السلاح فأمره سهل .. فهناك يقتات تجار الأسلحة من صراع البشر .. كلما تهاوت جثة صنعوا رصاصة .. وكلما احترقت مدينة .. صنعوا سلاحًا .
- كلما أغرتني بهجة تلك المدينة .. أرعدتني كلماتك عنها ، هل تخشين أن أذهب وتعجبني .. وأبقى .. هل تغارين من نساها ؟
- لم تر بعد نساء هذه المدينة إنهن أجمل .. وأروع ..
- ألا تخشين منهن ؟؟
- النساء هنا مختلفات يعشقن ولا يقتلن .

- يبدو أننى لن أكمل الرحلة .. غدًا نعود من حيث أتينا .
- لا .. أريدك أن تذهب إلى تلك المدينة .. لا بد أن تدخلها . تراها عن
كعب . وعليك أن تختار .. أن تجرّب .

* * *

كانت التجربة قاسية !

تصلبت عيناي المترعتان بأحزان الدنيا فى عينيه .. أستجلى منها نظرة
رحمة ! بادرة تعيد إلى أوصالى وزنها المتهاوى :

- أبى .. لا تفعل ! لا تترك البيت ...
شدّ على يدى .. اهتزت كغصن .. تناثرت شجاعتي ..
تهاويت .. لملت قدميه .. ركلنى وزمجر :

- وسأخلك معى !

ما أقساه !!

إذا كان للزمن وجه أقسى من الحجر .. فقد كان وجه أبى لحظتها أقسى من
الزمن .. أقسى من سيف يبتنى .. يفصلنى عن حنان أمى .. عن كفها
الذى حملنى جريحة وعلمنى المشى بعد ذلك .

وزحفت إلى حضن أمى .. كان دافئًا رغم البرودة التى تناوبت رعشاتها
عليها ، وكان الحزن فى وجهها جرحًا طريًا ينز دمًا .. ويتقاطر دمًا .

ومن بين شفّتين صفراوين .. انتحرت فيها الدماء قالت :

- كبرت البنت ... هى التى ستختار ..

وهدر صوته حادًا بثارًا لكل ما قد يأتي من ردود حتى وإن كانت متوسلة ..
متهوية بذلّها :

- لن تختار .. لقد اخترت أنا .. وسأخذها معي .
ورابطت في حضن أمي .. كم من الأيام ! والأسابيع ! والشهور !
لا أدري كم انتظرت حتى جاءت لحظة الاختيار . وصوت القاضي يتلاطم
في بحر الصمت قبل أن يصل إلى أذني :

- تريدن أمك .. أم أباك ؟؟
واريت وجهي عن أبي المترصد ردي .. وعن وجه أمي القانع كأنه يثق بأن
البذرة لن تختار إلا أرض الخير التي نبتت منها .

وأنا
تضرب الأشياء داخل نفسي وعلى أن أختار .. من هنا .. من شفتي
المبللتين بدمع أمي المالح التي رقدت في حضنها فترة الانتظار . يجب أن
يصدر الحكم .
لحظة الفصل .. الاختيار .. الحكم الأخير ... أنا التي سأنطق به .
كانت التجربة صعبة .

أن تختار بين أرضين رغم قناعتك بالفرق الشاسع بينهما . أرضين لمست منذ
وعيت مداهما الممتد .. تلمست تربتها اكتشفت كيف تكون التربة الجافة التي
تنصارع ديدانها لتغثال أشجارها المشنوقة .. فلا ينسدل منها فرع ليظلّ قبيظ
الطفولة .. وتربة تنلّي بفيضها الدائم .. بخيرها الذي ينبع صافيًا كلما انهالت
عليها شهوات السماء .

اللحظة .. رغم قسوتها حاسمة .. هكذا يجب أن تكون .. مرة في العمر
تختار الطريق بعد التجربة فتعتاد المشى فى الدروب بلا تردد

* * *

وأنت !
عليك أن تختار ..
- أختارك أنت .
- وأنا اخترتك .. آلاف الحصارات كانت بينى وبينك .. بيننا .. وبين الغد ..
زمن يرتحل .. وزمن يليه ... وفى الأفق كانت أزمان نجهلها .. لكنا
تمنينها .. قرصنا ليالينا .. همزناها كما تهمز الخيل لتجربى .. تسابق النهار ..
والنهار .. والنهار ...
- حتى أشرق النهار .
- غدًا .. يشرق أيضًا .. ستزور المدينة الأخرى ..
سأنتظر قرارك .. حتى تلك اللحظة سأتبقى أحبك .

* * *

واجمًا تأتي ..
صامتًا تعود ...
خطاك ثقيلة .. وجهك أصفر ينبىء عن أرقٍ لازمك ، وضيق باتٍ فى
صدرك .
وعيناي !
علامتا سؤال .. حائرتين .. هل أسألك؟؟

لكن حصارًا كالريح يداهنى .. يلفّ بي .. تأتي الصور .. تدور ...
قدمى المحروقتان .. الثقيلتان .. وجه أبي لحظة اختياري تجمد .. تقلّص ..
فقد آخر نقطة دم .. حين أعلنت : أريد أمي .. وجه يحترق كتلك الأوراق
التي أحرقتها .. وجه الميت المصفر المسجي على نعشه ! وأوراق الشجرة
الكبيرة .

الحصار يدور .. أدور .. وأنت تقترب .. أحسك وكأنك تهرب في كل
العالم لهندس في صدرى .. تشهق تبكى .. يغسل الدمع صور البشاعة التي
علقت في بؤبؤ عينيك .. وقلق الليل الذي عانيت .

تأتي .. شففتين جافتين تعلنان بصدق .. هنا .. صدرك مدينتي .. وكل
المدن هذه ليست لنا ..

أفتح ذراعى .. أحضنك .. أشم عطر شعرك .. أحسسه ، عطر مدينتنا
المنتظرة .. أحس أن الوطن أنت .. وأنت المدن .. وأن التجربة الوحيدة
الناجحة هي أنت .. يدك تحضن يدي .. عينك تقولان :

- تلك مدينة كريمة ..

أسبل جفنى .. أوافقك .. أتلفت إلى المساحات الخضراء التي حولنا .. إلى
الشجرة ذات الساق الضخمة .. أوراقها .. الكثيرة .. كأننى أسألك ..

وهذه ؟؟

يخرج صوتك الحبيس :

- علمتنا المدن .. ونستطيع أن نزرع شجرة .. بل أشجارا .

- إذن .. تقرر أن نعود ..

- أجل .. هناك سنحلّث ناسًا . وقد نستطيع أن نبني مدينتنا من جديد .

لا يصلح للحب

عند إشارة المرور التقت نظرتانا .. كانت له عينان جميلتان ، عينا صقر
قويتا النظرة ، عينان اعتادتنا التفرّس والتحديق في موقع الفريسة .
حدجني بنظرة حملها كل ودّه .. أرفقها بابتسامة أحسست بعذوبتها
تتقاطر . تود لو تبلبل وجهي ، لكنني خيبت أملها .. وأمله ، حدجته بنظرة
بصقت معها كل احتقاري .

من يظن نفسه ؟؟

هل يتصور أن عينيه تغريان امرأة مثلى تحررت منذ شهور فقط من سجن
تجربة مريرة ، وقبل خمسة أيام فقط استطاعت أن تتمالك أعصابها لتقود سيارتها
وكان كل خوفها أن يتبعها ذلك الرجل الذي انفصلت عنه فيطحنها انتقاماً
ويساويها بالرصيف .

* * *

حين نطق القاضي حكمه صرخ :

- لا .. أنا لن أطلق وحقك باطل .

قال القاضى ببرود أعصاب حَسَدَتْهُ عليه :

- انتهى الأمر.. القضاء خير فاصل بينكما .

قال بكل جرأة ووقاحة :

- أنا أحبها !

التفت نحوه ، شحذت بعض الشجاعة وأنا فى حضرة القاضى

وصرخت :

- ولكنى لا أحبك . ولم أحبك يوماً .

قال :

- هذا ليس كافياً ليتم الطلاق .

نقر القاضى بيده على الطاولة :

- اسمع يا هذا . هناك سبب جوهري ، أنت تعرفه ، من حق المرأة أن

وقاطع القاضى ...

تريد أطفالاً .

قلت :

- نعم أريد . خمس سنوات كافية . وأنا امرأة من حقى أن أحضن وجه طفل .

لو كان قد جاء لأنسانى المتاعب الأخرى التى عشتها معك .

* * *

كان يفرغ عقده كالسم فتسرى في بدنى ، كنت أتناكل وأنا أرى وجوه
الأطفال في كل مكان ، وأحسد الأمهات ، وأشفق عليهن من حسدى ما ذنبن
إذا كان قدرى وأنا العاشقة لعيون الأطفال أن أحرم منهم ؟

وكان حين يلمح نظراتي المشحونة حبًا واشتهاء لوجوه الأطفال يثور ،
وأحسه يطحن غيظه تحت أسنانه . يزفر وتصير له نظرة حمراء يفرسها كالناب في
لحمى فأخاف . وأحوّل نظرتي وأستجدى رضاه . كنت أعلم أنه في البيت
سيحول الأمر إلى جريمة ارتكبتها ولن يتردد في ضربى أو شد شعرى . وكنت في
كل مرة أقرر أن أقصه حتى لا يجد ما يعطيه الفرصة لإذلالى . ولكن لا أدرى
لماذا كنت لا أفعل !

وذات يوم قررت أن أكسر قيدي . صرخت فيه :

- طلقنى .

قال :

- لا تحلمى .

قلت :

- سأرفع قضية .

قال كأنه يذكرنى بأنه رجل :

- سأماطل ... سأتهرب ، . سأجعل قدميك تحفيان وأنت تتمرغين فى أحلامك

بين أروقة المحاكم .

حققت عليه :

- هل تقبل امرأة تكرهك ، ترفضك ؟
قال بغرور :
- لا يجب أن ترفضيني أنت . أنا الرجل . وأنا الذى أقرر ، أبقىك .. أو أرفضك .
- وكرامتك ؟؟
- هو ذا معنى الكرامة . يجب ألا ترفضنى امرأة . أنتن كالأحدية نستبدلها متى شئنا .

* * *

شهور طويلة مرت .

ليال قاسية باردة تعصف بى ، تحولنى مرة إلى قطة وديعة فأحاوره بلطف .. وأرجوه أن يطلق سراحي ، ومرات أنقلب إلى نمره مفترسة أغرس أظافرى فى لحم المخدة وأصرخ .. لكنه ببرود يلتهم حوارى ، ويشمت بضعفى . يستبيح تعذيبى وكأنها الوسيلة الوحيدة التى تحرره من عقده .
أخيراً لجأت إلى المحكمة ، فهزأ بى ... لكن المحامى طمأننى :

- هو يريد إحباطك ، لكنك ستكسبين القضية .

وصرخ هو فى وجهى :

- ستطعنين فى رجولتى حين تعلنين أنى عقيم !

قلت له :

- تصور لو كنت مكاني .. ماذا كنت ستفعل ؟؟

قبل أن يتنفخ كالديك ويفتح فمه كنت أكمل :

- ستزوج امرأة ثانية لتتحقق مرادك .
- ولطفًا من لهجته :
- ولكني سأبقى عليك .
- شفقة وحسنة منك .. أنا لا أستطيع أن أبقى عليك . وليس مسموحًا لي بزواج ثان .. أية مصيبة قيدتنا بهذا الشكل ! لماذا ندفع الثمن؟؟

* * *

دفعت كثيرًا للمحامي .. دفعت من أعصابي ، من راحتي ، وحين أعلن القاضي الحكم نسيت كل شيء ، شعرت بأبني ولدت عصفورة وعلى أن أحلق بعيدًا . لكنه ركض خلفي ، كان صوته عاليًا يهدد :

- سأقتلك .. سأهرسك بسيارتي . سأحرمك الحياة .

واختفيت ! شهورًا وشهورًا أخشى أن ينفذ حكمه وأخسر عمري بعد أن تصورت بأنه بدا بعيدًا عن رجل سرق منه خمس سنوات مظلمة لم يستطع أن يهديني خلالها وجه طفل .

* * *

نعم وجه طفل ... وليس وجه رجل ألتقيه عند إشارة المرور !

لكنه حلق ..

شحن النظرة بالود .. بالرغبة .. بالحلم أن أبتسم له ، أبادله الفرحة . وبعد ذلك يلحق بي بسيارته ، يقف .. ويتصور أنني سأقف وأنتقل بكل بساطة إلى

جانبه تاركة سيارتى على الرصيف يهلع قلبها لأجلى .

سييادرنى :

- إسمك ؟

سأخترع له اسمًا .. أى اسم سعفى لسانى وينطقه .

ثم :

- من أنت ؟

سأخترع له كذبة جديدة .. أنا ابنة فلان ، أعمل فى مؤسسة كذا .

و..... عازية !

سيرتعش . بالطبع سيتمنى لو كنت امرأة ! سأكون أسهل عليه . لكنه

لن يعدم وسيلة يثير بها اهتمامى لعل وعسى .

طرت بسيارتى . تمهل هو . لابد أنه يلتقط رقم السيارة . وسيحظى

بصديق له فى إدارة المرور يستخرج له الاسم ، والعنوان ، ورقم الهاتف

و...

ألو.....

- من أنت؟؟

- أنا الذى قابلك عند إشارة المرور .

- وماذا بعد؟؟

- ابتسمتُ لك .. فكشرت فى وجهى .

- مادمت كشرتُ في وجهك . فلم الاتصال؟؟
- أعجبتني .
- وأنت لم تعجبنى .. ولن تعجبنى .
- جربي .
-
- سأغلق الخط في وجهه .
- مرة ثانية .. سوف يعاود الاتصال وسأصرخ :
- ماذا تريد؟؟
- لقاء .
- يا كلب .
- الكلب اوفى مخلوقات الله .
- ياوغد .
- وسأصفق السماعة .
- لن يتعب . ولن ييأس . رجل واثق من نفسه :
- أرجوك لا تكوني عصبية .
- ماذا تريد؟؟
- لهجتي ستكون أهدأ .
- قلت أريد لقاء

- لماذا؟؟
- بعض الرقة فى صوتى .
- لتتعرّف .
- ولكنى لا أريد أن أتعرّف .
- فى لهجتى دلال .. وتردد .
- حاولى . ولن أضايقك .
- هل أنت صادق فيما تعدُّ به؟؟
- لهجتى فيها رضى .
- أحلف لك .
- وماذا بعد اللقاء؟؟
- لهجتى فيها مودة .
- أبدًا .. قد نكون بعد ذلك أصدقاء .
- أصدقاء؟؟
- فى لهجتى نبرة أمل .

* * *

أمل داعبى .
أحتاج حقًا لصديق .. الشهور الطويلة التى تنقلت فيها وحفيت أقدامى

وأدماها شوك المتابعة ، أفقدتني كثيرًا من الأصدقاء .

كنت لاهية عن كل شيء . وبعد الطلاق ، افتقدت كثيرًا من العلاقات التي
بنيها يوم كنتُ زوجة . النساء لا يرحبن بي . كل واحدة تتصور أنني سأسرق منها
زوجها .. والرجال تحولوا بقدرة قادر إلى ذئاب تلاحقني ألسنتها اللاهثة بشبقها
العنيف .

عشت في فراغ احتوائي حتى كدت أحس أنني وحيدة في هذا الكون .
لا أسمع سوى صدى صوتي ولا أرى إلا خيوطًا متحركة هشة لا أستطيع
الإمساك بها . ولا الإفلات من مراقبتها وكأنني سأحظى يومًا بخيط متين أتعلق به .
يرجحنى ثم يغمرنى ، يلتف حولي وأشعر بالأمان .

صديق !!!

نعم . أحتاج لصداقة .. لمعبر أمر منه فارةً من الكوابيس والأحلام إلى
الواقع ..

سيعترى صوتي الفرح . سأسأله ثانية لأتأكد :

- أصدقاء؟؟

- نعم . لم لا ؟

-

سيختنق صوتي .

- لا تردين ! هل ترفضين دعوتي ؟

- أين؟؟

أخيراً .. لهجتي .فيها القبول .

- أى مكان تريدن .

- أخشى أن يرانى أحد .

لهجتي فيها تردد .. ألسنُ امرأة مطلقة؟؟

- كل الأحد هذا يخرج .. ويعيش .

- ولكن كلام الناس دبائيس تلمى . فتشير الراححة .

- هواية الكلام لن تغفلك حتى لو كنت فى ققم .

- إذن . اختر المكان . أى مكان خال من البشر .

- سأختار . سنلتقى يوم كذا الساعة كذا ... و.....

سأغلق الساعة .

* * *

فى الليل سأقلب ... سأقلق .. سيكون الفراش شوكتاً . ما الذى

سيحدث؟؟

رجل له عينان جميلتان . لا أعرفه . يدعونى للقاء وأنا امرأة خاضت غمار

تجربة فاشلة . هو لا يعرفنى . فهل أجرؤ أن أقابل رجلاً وكل الرجال من حولى

ذئاب وصقور؟؟

سأحزن .. إذ ترسب هذه الفكرة في رأسي هذا يعني أنني سأحرم نفسي
فرصة قد تكون ذهيبية . سأحرم روعي لحظة تسافر فيها إلى مدن العشق والرعدة
والاستشفاء من مرضها ، و.....

سأدأعب جسدي وشفتي : سأحرم هذه الحيوانات الصغيرة الراكدة
في هذا البض الوسيم أن تختار عشقاً يدغدغها . ويوقظ فيها نبرات جفت وارنحل
عنها موسم الربيع .

أليس هذا ظلماً؟؟

النار تحرق .. هذا صحيح . لكننا نحتاجها لندفأ . الماء قد يفرقنا . لكننا
لا نستغنى عنه ليبلل جفاف حلوقنا في مواسم العطش .

الأشواك كلها تدمي لكننا نكون قد شممننا عطر الزهور التي تحرسها .
لماذا أحكم على كل الرجال بأنهم ذئاب فاسدٌ باب الأمل أمامي .. الأمل
في أن يكون لي طفل أعانق وجهه .

كيف؟؟ ولماذا سيأخذني التفكير إلى هذا الحد؟؟ أليس من الممكن أن
يكون متزوجاً وله أطفال يعانق وجوههم؟ أو أنه يريد أن يتسلى؟ أن يغير طعم
حياته التي ربما ركدت بفعل الوقت ومرور السنوات فمَلَّ وجه زوجته .. أو ..
ربما هو يحبها .. لكنه فقط يريد أن يعيش تجربة عابرة .

وأنا !!

هل أكون ابنة السبيل المتسولة السهلة التي تنتظر المنحة؟؟

أنا بحاجة إلى رجل . رجل حقيقي . رجل لا تتواطأ نظرتة مع ما بداخله من

حيوانية وتوحّش . رجل لا يستبيحني لنفسه بمجرد نظرة تجردني من أصغر ما أرتدى .

ولكن ! أين هذا الرجل ؟ أغلب الرجال لا يصلحون للحب .

الرجل الذي أريده له مواصفات معينة . أريد أن تكون له نظرة لا تخدشني . ولا تعريني . نظرة رطبة حانية . تحتويني . خجولة تحترمني .

آه ... هل يوجد رجل كهذا ؟؟

وهذا الذي غرس نظرتَه الصقرية في مسام عيني . هل أعطيه الفرصة ؟ هل أعطى لنفسى الفرصة ؟؟

لا .

لقد كانت عيناه مركبتين . واثقتين . فيها إصرار ، فيها كلام يقول :

« لن تعصى على امرأة . أنت ككل النساء »

هل أصير ككل النساء التافهات ؟ هل أسلم نفسى لعينيه تنهشان حتى

العظم ؟؟

لكن عينيه جميلتان .

ما أشس جناح الفراشة الجميل .

سأطوى نفسى . سأعانق دهب المكان . سأطرد عينيه الجميلتين . سأحول أن

أنسى يوم كذا ... الساعة كذا ... وسأرحل في نوم لذيذ .

* * *

دقات المطر

مطر....

مطر....

والغيوم عرائس بيضاء تتعاقب في السماء . ثم تنفرش ، ثم تتلاصق ،
تتزوج ، تطلق شهقة ، تلتمع ، تضيء ، تلد المطر . خير يجلب من السماء ،
والأرض تفتح نفسها ترتجف إذ تُفرغ النشوة بداخلها . تمتص . وتزهو . وصوت
الزخات له رنين عذب كأغنية أم تتهدى إلى أذني ، تنزلق إلى قلبي . أحسها .
أسمعها :

ثُمَّ .. ثُمَّ .. ثُمَّ .. ثُمَّ ..

هواء باريس يلفح وجهي ، مداعبًا تارة .. وقاسيًا تارة أخرى . يدخل إلى
رثتي باردًا ، ناعمًا له رائحة الصبر والأمل .

الزحام شديد . ونظراتي تبتلع الوجوه التي لا تجد لها مكانًا في الذاكرة . نهار
يركع للاهثين المتراحمين على المتاجر ، على أفران الخبز ، على الباصات ،
والتاكسيات ، على المقاهي ، كل وجه يحمل بصماته وحكاياته . وتشتعل

ذاكرته بآلاف الأسماء ، والمناسبات ، والتذكارات . كل ذكرى تحمل
طعمها ، حلاوتها ، مرارتها ، ووجهي !! لا بد أن كل العيون ترى فيه حيرته ،
وربما قصته ، أو ربما نفيض منه هذه الأفكار التي لا تهدأ ، تتسارع تخطو معي
كلما خطوت خطوة على الأرض المبللة .

المطر يلتصق على الأسفلت الأسود .. ذكرني المشهد بوجه المرأة الأفريقية :
وهي في لحظة مخاضها . مشهد رأيت في أحد الأفلام وتقلصت عضلاتي .. يومها
قررت ألا أمر في لحظة كهذه .

الماء جداول تنحدر إلى الأطراف حيث تبتلعها فتحات المجارى . هنا يصب
العرق . والجدول .. آه لو تصب هنا كل الموروثات البالية . كل الأفكار
الحجرية التي ولدت في العقول واتخذت قرارها الأبدى بالأبدى تغادر .. ولا تلبس .
مطر ...
مطر ...

والهواء البارد كصفعة أب لا يكبر أبناؤه أمام عينيه وباريس العروس ،
وأنا ! النائمة الجديدة في مدينة تحلم بها القلوب قبل الرؤوس . أحسن لسعة
البرد . أدفن كفى اليسرى في جيب تنورتي الضيقة . وكفى اليمنى تحمل المظلة
الزاهية تشد عليها فأتذكر كفى أخى التي شدت على كفى وهو يودعني قبل
الرحيل . وكلماته التي تدحرجت من ثغره . كلمة تدفع الأخرى وكأنه يخشى لو
تأتى أن تخونه الكلمات أو يفتر بعضها :

— ذهب لمزيد في العلوم . عيشي هناك . استفيدى من وقتك . واستمتعي بقدر

ما تسمح لك به الحدود المرسومة تذكرى دائماً أننا شريون ! عرب ولنا عادات .. وتقاليد .

ابتسمت له مداعبة :

- وإن أحببت « فرنسيًا » فماذا أفعل ؟؟ هل أتزوجه ؟

قال بطريقة ودية لا أدرى هل ليقتنع بها نفسه أم ليقتنعني :

- لا أتصور أنك ترتكبين حماقة كهذه . أنت تعرفين الأصول ... وتقاليدنا ...
القيد نفسه

يلفه أخى ساخناً حول عنقي حتى وأنا أحمل وعيبي وعقلي ، وثقافتي لأندرج في ساحة الحياة . أبحث عن موطنٍ أكبر يتسع لكل الأحلام ، والأمانى والأمل في أن يخفق قلبي مرة واحدة بحرية .. بشيء اسمه الحب . كلمة لا يعترفون بها وكثيراً ما يقفون في وجهها كالسد المنيع .

وأنا

هل حقاً أستطيع أن أترك العنان لقلبي فينطلق كحصان جامح ؟ هل يحدث أن يكون مقرّ قلبي قلب رجل لا تربطني به صلة قرى ولا دم .. ولا دين ؟ حين كنتُ أمازح أخى ؟؟ لم تكن الفكرة قد سبقت ما قلته . جاءت وليدة اللحظة ذاتها . أتراني الآن أندم إذ تركت في قلبه إحساساً بالخوف منى أو على ؟؟ هل سيعتقد باننى أجرؤ أن أفعل شيئاً أو أتخذ خطوة أعلم أنها ستقيم الدنيا على رأسي ولا تقعدها .

هل يتصور أخى أنى أنسى تلك المهارات التى أثيرت حول الزواج. من العرب؟ لقد دعا البعض لحرمان الكثيرات من حقوقهن ، السكن ، العلاوة الاجتماعية ، مؤكدين أن هذه المؤهلات وحدها تجعل العربى يسعى للزواج من بناتهم . ناكرين أية ميزة أو صفة حلوة تشد الرجال إلى بناتهم . متناسين أو قاصدين أن هناك شيئًا اسمه الحب يربط بين قلبين وتنبكسر دونه كل القيود . وتذوب العقد .

إحداهن كتبت مرة تعترض على هذا الظلم وتذكّر بأن بعض الشابات تزوجن « أجانب » لارتبطنا بهم صلة دم . ولا دين . وجاء الرد فى عدد آخر مفجعًا كتب أحدهم يقول : إن مثل هذا الزواج يعتبر مكسبًا فقد دخل الزوج إلى حظيرة الإسلام .

بالسخرية ! بالتقاليد الثلجية ، وهذه الأفكار المترسبة فى الظلام . كم هى بحاجة لمشاغل تذيبها ، تحرقها وتفتح فى أرضها زهور جديدة !

وقفت فى مكافى ... أمام أحد الأكشاك المنتشرة التى تباع الصحف بمجلات مثيرة . صور جنسية تلتهمها الأيدي والعيون .. تقززت . سحبتُ مجلة للأزياء قلبتها لم تدهشنى . عندنا يلبسون كثيرًا مثلها . وهنا لستُ بحاجة لأى مظهر . الناس يفكرون بطريقة أخرى . بحثت عن صحيفة عربية . فرحت ، وحين تصفحتها أصابنى غمٌ بالغ . وجدتها مليئة بأخبار الحروب ، والقتل . صور مشوهة لأطفال ونساء ، ووجوه أخرى عبارة عن عظام ناتئة من أثر الجوع ! وفى صفحات مقابلة وجوه أخرى تتصدر صفحات المجتمع الخملى .. وجوه منمقة وأخبار ملفقة .

إعلانات تلتهم أغلب الصفحات ، مباركات ، وتعاز ، وإعلانات أخرى
تطلب بيوتًا .. تطلب خدمًا .. وهواتف سيارة !! إعلانات عن طلب
«كانيش» غالى الثمن ضاع أو خادمة خرجت ولم تعد !

زوايا كثيرة ... لبعض الجهلاء تشتم عباد الله وتسمى الشتيمة نقلًا . تحقد
على الآخرين وتسمى الحقد وطنية صادقة ! ليت هذه القلوب تغسل مرات
بمثل هذا المطر .

* * *

مطر....

مطر....

حنان سماوى يتدفق فى سماء رحبية ، ويرد يفتت الصمت .

هنا .. فى أعماقى ، فى عاطفتى التى اشتاقت لدفء الصحراء التى لوحث
الشمس وجهها ، عروسة سمراء دافئة تلتمع على جيئها حبيبات السراب ،
وعطش الجوف ، ونور القمر .

حين ارتفعت فى الطائرة ودعت الأرض بحب . كان الجبل الأليف يصل
ما بين الأرض ، وقلبي . وها هو يمتد ولا ينقطع ، ولا يتراخى رغم ما يشقله من
وصايا . وتحذيرات وتذكير بالتقاليد مبطن بشبه تهديد رقيق ، ووعيد . وكأننى
طقلته ترنوا إلى النار ولا تدرك العاقبة .

ها أنذا ...

أنزوع تحت المطر البارد بعد أن تركت النار فى الصحراء تلتهب . حملت

طموحى إلى بلد الحرية بلد الأحلام . فهل حرام أن نعلم ؟ أن نغادر القمم المغلق الذى زرعونا داخله محارات يخشون عليها أن ترى النور؟ أن تراها عين غريبة فتفتحها وتحببها وتكسر التقاليد ! كم أكره هذه الكلمة وحين كررها أخى تمنيت لو تنعدم من قاموس حياتنا التى غادرتها لأبدأ حياة جديدة .

مطر ...

مطر ...

موسيقى انتحاره من السماء تعزف كلما ارتطمت بشجرة أو مظلة .. أو رأس عاشقين . كأنها تريد أن تمسح من الديننا كآبتها .. وشواتها . زخات يلاحق بعضها بعضاً أحسها تجرى أنهاراً من الفرح تتسابق إلى شراييني فأزداد إحساساً بالبرد . أتذكر أنني خرجت هذا الصباح لأبحث عن « بالطو » يُخمد العاصفة داخل جسدى ، وعاصفة الشوق فى قلبى لأرض الصحراء الدافئة .

عيناي تتابعان واجهات المحلات . الأسعار الخيالية بحاجة لثورة تكسر الواجهات وأصحابها ، والبرد اللافح يقرص جسدى فأندفع نحو مقهى قريب أطلب كوباً من الشاي الساخن .

جرعته مرة واحدة سرى دفء عجيب جعلنى أبتسم ، وحين رفعت وجهى التقيت وجهاً مبتسماً كأنه يردُّ على ابتسامتى أو يهزأ منها . كانت له عينان ينبت داخلها حقلان أخضران . نظر إلى صدرى ، لمح السلسل الذى يحمل « ماشاء الله » التمع بريق مفاجئ واستأذن بأدب :

– هل تسمحين أن اشاركك طاولتك ؟

لم أجد مقرًا أمام هذا الأدب الخجول والعينين الجميلتين رحبت به :
- تفضل . الطاولة تتسع لأكثر من اثنين .

همس :

- عرفت أنك عربية من هذا .

وأشار إلى السلسال .

وابتسمت :

- وأنا عرفتك من العربية التي تتحدث بها .

تعانقت نظراتنا . أحسست بفرح . الآن أستطيع أن أنهى الصيام .. هذا
وجه عربي ، لسان عربي .. سأتحادث إليه .. وسأستفسر عن بعض الأشياء التي
أجهلها . جلس .. استمرت نظراتنا متعاقبة .. كأننا نعرف من نحن . ومن
نكون . كأننا التقينا قبل هذه المرة بالصدفة أو في الأحلام . أو مع قطرات المطر
المسافرة من سماء أخرى .

قلت :

- لقد أنهيت فنجان الشاي . وأنت .. هل تطلب شيئًا ؟

- لا ..

- سأستأذن إذن .

قلت هذا وبى رغبة أن يرفض استئذاني . أو أن يقوم ويرافقني في هذا الجو
الرمادى البارد . تحرك . فرحت . قال :

- سأرافقك أو....

استدرك كأنه تسرع :

- أو هل يزعجك هذا؟

- لا ..

قلتها دون أن أفكر . دون أن أبطئ في الرد . ولكن حين سار قربي أحسست برهبة كأنها إبر تذكرني . هو بالطبع الخوف الذي يتبدل في داخلي . جعلني هذا أتلفت أخشى أن تصادفني عين تعرفني .. فتنقل الأخبار إلى أحيى . إلى الأرض التي تأتي أن تتنفس هواءً عذبًا ونغرس بذرة في أرض جافة .

كنتُ أبحث عن طريقة أدارى بها قلقي وهو قربي . ألحظ خطوته على الأرض المبللة وكفّاه داخل جيوب جاكته .

بادرنى :

- نظام . اسمي نظام . طالب . وعامل .

- وأنا توار . طالبة . كسولة لا أعمل .

- لونتك أسمر ولهجتك توحى أنك من

- الصحراء ... خليجية وستقول بأننى مادمت من هناك فلا داعى للعمل .

ضحك ثم تنهد بعمق . كانت السماء لا تزال تحلب خيرها :

- حاولت أن أذهب إلى هناك . لكن الأبواب مسدودة .

أشرت أمامى :

- الحياة هنا رائحة ، والجوكذلك . وأنت تعمل هنا . فلماذا تذهب إلى هناك؟؟ .

عقد ما بين حاجبيه . تأثر من كلماتي :

- أنت مخطئة . الحياة هناك تبقى أجمل . أنا ولدت هناك . وتعلمت . أنهيت
المرحلة الثانوية . حسبت أنني سأكمل كل تعليمي لكن أبواب الجامعة سدت في
وجهي .

- لا بد أن مجموعك لم يوهلك لذلك .

- لا .. مجموعي وبمجاميع كثيرة كانت كافية . ولكن !!
أحسست بالغصة .. أعرف كل شيء . لم أحاول أن أستنزف منه أكثر وأفجر
عذابه . أكمل هو :

- يشدني الحنين إلى هناك . فكرت بالزيارة لكنهم رفضوا إعطائي فيزة
دخول . و ...

قاطعته :

- ولكن أهلك هناك وتستطيع .

زفر :

- كأنك لا تعرفين القوانين . منذ غادرت لأدرس انتهت إقامتي . لم أر أهلي
منذ سنتين .

حاولت التخفيف عنه :

- يبدو أنك تعاني .

وكانه كان بانتظار أن أفقأ دمل متاعبه :

- لا تصورين كم هي الحياة قاسية . علينا أن نتعلم . لا أرض لنا .. لا وطن .. حتى ولا جواز سفر . شئء نحمله لتبصق المطارات في وجوهنا . علينا أن نشقى لنوثر مصاريق دراستنا . وبهذا نرد بعض الجميل لأهلنا .
- ليس عيبًا أن يعمل الإنسان .
- لم أقل هذا .. ولكن هل تعرفين أى عمل أقوم به ؟
هزرت رأسي متسائلة وأحني رأسه :
- أعمل في حانة . وبعد ذلك أذهب إلى بيت عجوز أنظف لها البيت ، أغسل ملابسها ، أكويها . أجهز لها كل ما تتطلب مقابل أن أنام في غرفة أشبه بالمرحاض . وبهذا وفرت السكن .
- يا إلهي !!!
- نعم .. يا إلهك . إنني أشعر بعظامي تتصافق من التعب . لكنني ملزم .
- هل مثلك كثيرون ؟
- بالطبع . وكلهم له مشاكل ومتاعب . والأكثر من هذا الحنين إلى الأهل ، لأي أرض ولد عليها ، أليس محزنًا أن نولد على أرض ثم ما أن تغادرها حتى تصادر عودتنا إليها ؟؟ صدق نحن نحيا لأننا لا نعرف وطنًا غيرها . فكيف ترفض الأم جنينها ؟ وكيف لا ...
- اسكت ، آه .. لقد عذبت قلبي . الشكوى نفسها أسمعتها هناك من أمهات ، أمهات ، وآباء .. وأزواج لا يسمح لزوجاتهم .. و .. يا إلهي هناك قوانين كثيرة خاطئة ولكن : آه .. لقد أوجعت قلبي .

- اندرس فى وجهه خجىل :
- آسف ، من الللظة الأولى كنت ثقىلاً علىك .
- لا تعتذر مثلك ببقى دائماً بملجة لمن بسمعه ، لكن صدقنى .. نحن أيضاً نعانى .
- استغرب كلامى :
- ماذا ؟؟ المال عندكم وفير .
- هل تتصور أن المال بجمينا من التعب ، والمعاناة ؟؟
- المال بمل مشاكل كثيرة .
- ها أنت تعرف . المشاكل ولكن ! ماذا عن الذى هنا ؟؟
- وأشرت إلى صدرى .. وتابعت :
- فى الداىل فى أعماقنا يا
- أحس أننى نسى اسمى فذكرنى :
- نظام .
- ضحك ضلحة صغيرة وتابعت :
- اسمى ثقىل .. مثل .
- ضحكت . كان دمّه خفياً :
- اسمع يا نظام .. أتصور أنه رغم كل الهموم التى تعانون .. تشرد ، غربة :

فقر ، ربما اضطهاد .. ولكن أنتم تحررتم رغم هذا من أشياء كثيرة .

صمت

- هل تفهمنى ؟ .

- مثلاً؟؟

- أقول لك . لو كانت لك أخت فى هذا البلد ، ورأيتها تمشى مع رجل ..

تماماً كما أنا الآن أمشى معك ، وأتحدث بجرية . هل سيفضبك هذا وتثور ..

و....

- ياه !! هل هذا فقط ماتعانين؟؟

هزرت إصبعى فى وجهه :

- رأيت ، هذا الأمر التافه حصار .. وغيره كثير كثير .

- ولكنى لا أراك تحاصرين نفسك . إنك شجاعة .

- يبدو لك ذلك . فى داخلى أحس بالخوف . أتصور أن كل العيون تراقبنى .

وأنها مجتمعة ستكون عيني أخى ..

قال بجزن :

- آسف إننى بمرافقتك أسبب لك إزعاجاً .

- لا .. صدقنى . أنا مرتاحة إليك . ولكن هذا هو الواقع .

كنا قد اقتربنا من أحد المقاهى . تلفت . ابتسم .. قال :

- بودى لو أعزمتك على جلسة مرحة هنا . ولكنك .

- أرجوك .. لاتفهمنى خطأ .

- أنصوري يا توار أنك كبرت ويجب أن تكون ثقتك بنفسك كبيرة ، أن تتصرفى على هذا الأساس . مادمت لا تتصرفين إلا بحدود العقل . فلا يجب أن يمسك سيف الخوف .
- الخوف نما معنا .
- إننى أعجب كيف يدعونك تسافرين للعلم إلى بلد كهذا .. ثم يغرسون بداخلك الخوف من الحركة ، فتحاصرين حريتك .
- هذا هو التناقض الكبير .. وماخفى غيره كان أعظم ..
- عليك أن ترفضه .. الآن فرصتك أن تكوّنى شخصيتك ، أن تعتمدى على نفسك ، أن تخلقى رأيك ..
- أجل .. سأحاول ذلك .
- كنا قد وصلنا إلى نهاية الرصيف الذى تمتد عليه المقاهى . التفت إلى :
- على أن أستأذن الآن ... يبدو لى ذلك .
- هل ضابقت خوفى !
- لا .. بالعكس . قد نلتقى فى صدفة أخرى ، وتحدث .
- مددت كفى الباردة . مدّ كفه .. تعانقت الكفّان ، سرى دفة فى جسدى وأنا أغوص فى حقل عينيه وأهمس :
- ربما نلتقى صدفة . وربما نكون أصدقاء . ابتسم سعيدًا بجرأتى :
- هى الخطوة الأولى . ثم كل شىء هين . و..... ابتعد .

المطر لا يزال رذاذًا .. وديعًا يغسل كل شيء . ويقرر أن يمسخ عن
الطرق كآبئها . وعن الشجر شوائبه ، وعن الوجوه حزنها .
وأنا

قررت من اللحظة أن أمسخ كل شيء باضوه فى ذاكرتى . لا أريده أن
يفقس فيها ويتزايد ، قررت أن أفتح فجوة يطل منها النور ليضىء كل
الظلمة التى تقيد الخطوة إلى المستقبل .

وأكملت الطريق ... وصوت المطر يدق فى قلبى فرحًا .

تم .. تم .. تم .. تم .. تم .. تم ..

* * *

الصرخة في فم الثعبان

تعرفُ .. أترنم .. أناملها الرفيعة الناعمة تنساب ، تضغط بخفة على أصابع البيانون ، ويتوزع اللحن الهادئ يمتزج بنسمات الغرفة .. أترنم ... هي تبسم .. تراقب وجهي الحالم :

- سعيدة أنت ؟

- جدًا .. هذا اللحن يغزو كل نقطة دم .. فتفتجر فيها حيوية راقصة .
تقول مبتسمة :

- أنا سعيدة أيضا .. هكذا أحبك حاملة .. هادئة .. وديعة كحمامة .

- آه .. أود ذلك . لولا

تأني الصرخة .. يتقلص وجهي .. تيبس كفي فوق جبيني .. تتعارك الأشياء داخل رأسي ... يتحول اللحن مطارق .. تصطفق أبواب ذاكرتي بعنف .. تزجر صرختها اللعينة ! تطاردني .. أترنح .. أنسى سعادة اللحظة القريبة .. تترك البيانو .. يسبقها خوفها .. تطوق كفتي .. تدس وجهها في عنقي .. تبلل عروق بدمعها .. تتوسل :

- ماما أرجوك .. حاول .. سأعزف لك مقطوعة باخ ..
- آخ .. آخ .. الصداع .. الإيقاع الشنيع ..
- تغمرفي .. هلعها .. حبها .. حنانها العذب .. همسها الدفئ .. ألقُ ودبج
يشع حولى .. لكن الصرخة الملعونة !!! أقع ...
- فوقى تنهمر كحبة مطر موسمى .. تنفلت من وجهها حمرة ناضرة :
- لا .. أرجوك لا .. أنت بخير ..
- اللعنة ! الصرخة تطاردنى ..
- قطرة ماء تنسكب داخل حلقى .. وَحْبَة مُرّه .. أبتلعها وأتنسم عطرها
الدَّفَاق .. عرقها يتزلق من جسد مرتجف وأرى وجهها الأبيض الصافى ..
وثغرها يهتف :
- أنا أحبك .. هل أعزف؟؟
- اعزفى يا حَبَّة الروح .
- سأعزف اللحن الذى تحبين .. سيكون أقوى من الصرخة .. صدقيني ..
- رحلت .. اللعنة عليها .. وعلى مَنْ زَرَعَهَا فى رأسى .

* * *

تتراخى أطرافى .. تَتَسَمَّل .. يداخلى هدوء كغيبوبة أذوب فيها .. أسمو ..
يغازلنى نعاس شجن .. يدغدغ مفاصلى ، كيده حين تداعب كل شىء ..
الموسيقى تعبر مساماتى ووجهه يتلقف نعاسى .. وذوبانى .. ذراعاه ترفعانى إليه ..
كأرنبة يخف وزنى .. ويلصقنى بصدره أندس فى ضلوعه اندساس الأرنبة فى
جحرها الدفائى أغرق فى النعاس .. أغرق .. أغرق ..

جسدى مسجى على الأرض .. أحلام تتراوح أطوالها تتداخل .. تغربى
 باستسلام عذب .. ويتفجّر صمت الروح .. والموسيقى تهب كسنايات رخيّة
 تحملنى . أنفلت من جحرى .. من بين ذراعيه الحنونين .. أتحمر .. أترك جسدى
 تغالبه الأحلام ، ويتراقص متشيئاً .

أركض .. أركض .. لا أدرى .. جهات أربيع تفتح أذرعها الصاخبة ..
 جئات .. نيران .. عواصف .. نسائم .. رطوبة .. ثلج .. صراخ ..
 أغنيات .. شعار مجنون .. وتأتى الصرخة . تشق الأصوات تغلبها تسقط بثقلها
 العجيب داخل جمجمتى .. أحس لها ابتسامة وقحة .. ابتسامة مومس باعت
 كل شىء فى ليالى الحقد .. والكراهية .. والغيرة العمياء .

تسقط الصرخة كجثة ترفرف حلاوة الروح فيها .. تقاوم الموت لتقتل الشعاع
 الأبيض داخل رأسى ... تبذل أقصى ما تستطيع لتقطع خيوط الأمل العذب
 الذى يتألق .. وكل الشرور فى أناملها الشقية الحشنة أقاوم ...

أركض .. الدم يتوزع بقوة يدفعنى .. أركض .. غابة فسيحة .. أشجارها
 باسقة لكن خضرتها كثيبه كأن آلاف العواصف الرملية قد غزتها .. نامت عليها ،
 وأعشاب الأرض جافة طالت كأظافر جنيات الليل الغادرات .. شوك .. لكن
 قدمى تُصران فادوس على دبابيس الأرض .. الصرخة المجنونة تأتى . الموسيقى
 العذبة تتراجع .. صداها لا يكسر حدة الصرخة و.... أهوى .. ثم أرتفع ..
 و ... أراه بين النباتات الجافة .. يتحلق جسده دوائر .. دوائر متداخلة .
 ويرتفع رأسه محوى ..

أرتعد .. ألتفت إلى الوراء .. هو ذا جسدى مسجى لا يزال .. آه لو أعود

إليه .. أندغم فيه .. أتدثر .. أغوص .. أفر من هذا الثعبان الحاقد ..

– لا .. إذا رأيت الثعبان . فلا تتحركى

قال أخى وهو يحدثنى عن ذات مرة حين التقى الثعبان فى إحدى المزارع .

– إياك أن تتحركى .. قفى حتى ينسل مبتعداً وإلا هجم هجمته القوية .

الخوف ... الرعدة .. رعد يتصافق داخل جسدى .. بروق حمراء ..

الفاحة .. آية الكرسي .. المعوذات .. السماء .. الله الرحمن ..

أتصلب .. قال أخى

أنتظر ... قال أخى ...

فم الثعبان مفتوح كفرج امرأة عابثة .. يفح كأن جهنم الحمراء تنفث

أحشائها الحارقة فى وجهى .. يتأملنى بتزق شرير .. أصلب حتى رموش

عينى .. لا يجب أن أتحرك . أخى قال

لكننى .. أخشى ... أكاد أتهاوى .. أسقط فى لجج اليأس .. لا مفر ..

الثعبان أمامى .. الأشواك تحت قدمى .. لا منقذ من شر المخلوقات ..

أتعود ثانية داخل صدرى تنبت تعاويد كنتُ قد نسيتها منذ غابت حكايات

جارتنا المسائية .. حول « منقل » الفحم .. ورائحة « الطرثوث » تفوح ..

وطعمه المر .. المر .. مرارة فى حلقى .. لعابى كله مر .. وهو يتطلع ..

ويقترب ... يصل إلى قدمى .. بدأ رحلته .. يتسلفنى .. لا أتحرك .. أخى

قال

جسده الأملس ينساب على جسدى .. الرجفة تصمت .. أبتلع حتى دقائق

قلبي .. أتركه يغزو الجسد .. يتجول عليه .. يشمُّ رائحة الحبيب المتألفة مع كل نقطة فيه يتشمُّ .. عرق المتصبب .. يُطرى جسدى .. فيزلق الثعبان من منطقة إلى أخرى .. هادئًا كأنه يتمشى في سهل أخضر .. كأن شعر جسدى هو العشب النابت ذو العطر الربيعي ..

أخشى أن يعوى الجوع في داخله .. فينقض على عنقي يمتص دمي .. لكنه بوداعه ينسل عائلاً مترنحاً للأسفل .. يتكور تحت قدمي الثابتين .. أحسها محفورتين في الأرض .. كأنني نخلة زُرعت منذ آلاف السنين تأتي إلا أن تظل واقفة تتحدى .. هيا .. تحرك .. خذ قامتك الزاحفة وارحل . افسح لي الطريق .. جسدى مسحى هناك .. وصوت البيانو العذب يأتيني .. يهدئ روعي .. ووجهها الذى خلقه الله كوجه العصافير .. فأنتشى .. أود لو استمر هذا الانتشاء لأظل صامدة حتى يرحل . لكن الصرخة اللعينة تصفع اللحن .. ووجهها .. وحنان ذراعيه - اللذين خبأتني في صدره .

أنتفض .. أهتز .. أقاوم ألا أمسك رأسي لأسكت قرع المطارق الصدئة داخله .. لكنني أفضل .. أصرخ .. تنتفض الصرخة ... تغادرني .. يتسع فم الثعبان ينتفض .. ويفرغ الصرخة من نابين حقودين .. ينفث السم في ساقى .
آه

شيء كالنار .. يسرى .. يسرى .. كفاى تتقلصان تقبضان على عرقها المالح ليرتد إلى مساماتي .. يشحنني بالقوة .. ليبطل مفعول السم الزاحف .. لكن السم يسرى .. ينساب .. إلى بقاعى .. فأغيب .

* * *

- يدها تضغط على أصابع البيانو.. يسرى اللحن .. يخترق المسافات .. يعبر
الريح الصارخة .. وهنا يستكين داخل أذنى .. لحن « باخ » .
- آخ .. آخ .. أترنج .. أتماسك .. أترنج .. أتماسك .. نشوة اللحن النافذ
إلى أذنى تتعابث .. وجهها الرقيق يشع عبر تموجات الصوت .. يمدنى بالقوة
يعنفنى على هذا الاستسلام الخائب .. ويزجر الثعبان الذى يتجشأ سُمّه ..
يتعد زاحفًا .
- أنادى .. أنادى .. الصوت يخرج من داخلى .. ولا يخرج . أشباح من
حولى تتحرك .. دم أحمر يتفجر من مقلتى .. الكون دم أحمر ! صوتها
العذب وحده يحمل عطر زهرة .. حمراء متفتحة .. يتوسل :
- ماما قومي .. تحركى .. افعلى شيئًا .. وإلا فقدت عيني الحلويتن .. وعينه
اللتين تحملان صورتك .. و.. كلك . أستفيق .. أقرر أن أستفيق .. أن
أتحدى السم أنحنى .. ألتقط النباتات الجافة .. أربطها .. أوصلها .. يولد
حبل قوى .. أشد موضع الألم .. أشد .. أشد أستل شوكة .. أمزق لحم
ساقى الملدوغ .. ينهمر الدم متخثرًا ممزوجًا بالسم الأصفر .. وتتقاذف من
جوفى كل ماجادت به معدنى المتضزمة بغثيانها .. أرتاح ... أنزلق إلى
الأرض .. أتمدد .. يتمدد صوتها داخل روحى :
- تحبين هذا اللحن .. سأعزف لك الآن .. الدانوب الأزرق . زرقه السماء
تلوح .. غيمتان تراقصان .. أتذكره :
- أحب هذا اللحن .. وتحبينه .. هيا نرقص ..
هى تعزف .. نحن نرقص .. الصوت الشجى ينقذ روحى .. وسمتها ..

وشعرها المهْدَل على كتفين ناعمين .. وثغرها المبرعم كزهرة تنادى .. هَيَا
شُمْنِي أَيهَا الرَّائِي .. عَذْبَةٌ .. عَذْبَةٌ .. وكفاها تلامسان وجهي .. عنقِي ..
باردتان أزجرها .. تقلب شفها السفلى تتكور كشمرة ناضجة ..

- طفلة .. مها تكبرين ..

وتتحداني :

- إني أكبر ..

وأهمس :

- وأنا أيضًا .. يتغضن جيني .

يدها .. أحسها باردة فوق جيني .. الرأس يهدأ .. تغادره الصرخة .. كأن
يدها استلت تلك الجثة التي همدت بسمها داخل ساقِي .. وغادرته .

الزرقة تصبح أكثر نقاوة .. وبهجة .. الكون أصنى .. أنهض .. لا أحس
الماء في ساقِي .. أجرى .. أركض .. أضرب النباتات اليابسة .. أدوس على
الحشائش القاسية المفطومة منذ زمن .. وجهها ينادى .. الألم صار قوّة تطيرني
بخفة . نحو مصدر الصوت العذب الآتي من هناك حيث جسدي الكسول يدوب
في أحلامه . يجب أن أسرع .. أن أوصل الطريق الشائك .. مها كان شوكة
سامًا .. لدغة الثعابين لا تهم .. جثث الموق لا تحس إذا دسنا عليها .. الليل
الذي مضى لا يكثرث بنا .. النهار الآتي وحده ينتظر كوجه طفل ينتظر ثدي
أمه .. إليه أركض .. ذلك النهار الغائب الذي سيأتي واللحن الذي يغمر
الكون .. بأهازيج البراءة .. والسماء الزرقاء والغيمتان المتلاصقتان بحب ..
بشهيّة .. تؤكد أنها لن تنفصلا بعد هذا التيه الذي مضى ..

المسافات .. الموسيقى تشق أمامي فضاء رحبًا أدور .. لا أعبأ بالجسد
الرابض .. طفلة أعود .. أعارك الطبيعة الصافية .. أستنشق أحلامها الواعية
أبدًا .. أتبلل بعطرها المنهر .. أغتسل .. أمد ساقى الملدوغة أزيل أثر السم ..
والصرخة الماكرة .. أنفها من دمي ، من رأسى الشاردة نحو مدينة الرحمة
المنتظرة هناك . لا تزال أناملها تداعب أصابع البيانو .. مداعبة أليفة .. قطتها
تتكور تحت ساقها البيضاء .. وهو يفتح ذراعين .. سيصدع صوته :

- الدانوب .. تلك التى تحيينا .. هيا .

ونصير غيمتين .. تتسع لها فسحة السماء . أضحك ..

يشدنى إلى صدره ..

أعود طفلة .. أرنية .. أمزق أزرة القميص .. أندس فى صدره .. أنام على

لحمه الدافئ .

* * *

زهرة تدخل الحى

دخلت زهرة الحى ذات ليلة لا أحد يعرف من هى ! ولا كيف جاءت !
ولماذا جاءت : ومن الذى أستأجر لها هذا البيت الذى تطل شبابيكه على
البحر . رغم هذا ، فُتِحَ للبيت باب آخر من ناحية البحر . كانت زهرة تشرعه
فى الليل . تجلس عند بابه . وتسهر . قال جيرانها إن زهرة تعشق البحر . تناجيه
مناجاة الخليل لل خليل ، تبته أشواقاً دافئة . تغنى له . يسمعون لها صوتاً حنوناً ،
أو صغيراً ناعماً ذا موجات كأنها لغة عصفير ضالة .

زهرة امرأة ناضجة فوق الثلاثين . جميلة لها وجه أبيض صاف . مستدير
وخدان متوردان يكاد ينفر دمها . وعينان سوداوان واستعتان يحرسهما حاجبان
رقيقان أشبه بسيفين حادين . أما شعرها فيسندل شلالاً أكستنائياً يغطى أطراف
كتفها البضين . وحين تبتسم زهرة تنفرج شفتاها عن صفيين من اللؤلؤ الصافى .
ويبرز فى أقصى أفصاها طرف سنة ذهبية سرعان ما يختفى حين تغلق الشفتين
المكترتين .

زهرة جميلة . والحى هادئ ودبيع . بيوته الطينية لا تحمل صدق لأحقاد .
الناس فى الحى متآلفون . حتى الحمام على الأسطح تعرف أوكارها . ولا

توه . ولا تتغرب . وحين دخلت زهرة الحى . هلعت قلوب النسوة الآمنات
لعب الشك في قلوبهن . ابتدأت السؤالات : هل هى متزوجة ؟؟

إذن ! لماذا تسكن وحدها ؟؟

هل هى أرملة أو مطلقة ؟؟

الخوف يزداد : أم تراها عذراء ستحافظ على نفسها وشبابها ؟

حين عبثت الشكوك والمخاوف فى القلوب . لم تعرف النسوة طريقاً لراحتهن
إلا بيت « أم محمد » وقلب أم محمد الذى اعتاد أن يحضن هموم الحى . ويواسى
كل مفجوع . ويبارك لكل فرح . يزغرد لسانه وترقص شفاته ، قلب أم محمد
الذى لا يفرق ، ولا يعرف الكره أو الحسد .

قالوا لها :

- يا أم محمد . زهرة فاتنة بابها مشرع للريح زهرة تحب هواء البحر وأزواجنا
فيه يعملون . ونحن نحشى عليهم من الفتنة .
بان الضيق والأسف على وجه العجوز الطيب وعاتبته :

- تخافون على أزواجكم . ولا تخافون على بحركم .

- البحر للجميع يا أم محمد . زهرة تعشق البحر .

لمت دمعة فى عين أم محمد . طاف حزن كأنه آت من البعيد :

- هل تحب زهرة البحر أكثر منا ؟؟ هل تعشق رمله ؟ وريحه ؟؟ وموجه أكثر

مما عشقناها ؟؟ هذا البحر بحرنا . هو ذا أمامكم . اسألوه : من عشقه ؟ كم قلباً

نهش . وكم قلبًا أسعد ! كم أخذ منا ؟؟ وكم أعطانا ؟ عظامُ رجالنا صارت له
بجاديف . وأعناقهم صواري . بجرنا لا أحد يعشقه سوانا . أنتم لاتأملون .

تملمت النسوة . قالت إحداهن :

– يا أم محمد جئنا نأخذ منك المشورة . ماذا نفعل مع زهرة ؟ كيف نحمي
رجالنا ؟ وأنت هداك الله تتكلمين عن البحر . وكأنك تخشين أن تسرقه زهرة
وتترك الرجال .

هزت أم محمد رأسها :

– هذا ما يتأجج في قلبي لكنكم لاتعلمون . اذهبوا إذن إلى زهرة . جُسُوا
نبيضا . افهموا منها ماذا تريد . ولماذا جاءت ! وتفكروا في كل ما تقول .

* * *

رحبت زهرة بالنسوة ترحيبًا فاجأهن . قَبِلت كل واحدة منهن وكأنها تعرفها
من زمن بعيد . سألت كل واحدة عن أحوالها . تلك عن زوجها المريض .
وتلك عن ابنتها التي تعثر حظها . وسألت أخرى عن كَنَّتِها التي لاتحبل . وقررت
أن تصف لها علاجًا فرفرف الفرح على وجه المرأة . سألت عن « أبو يوسف »
التَّجَّار الذي بترت يده وقبع في البيت وعن « شيخوه »^(١) التي تبيع نفسها
للرجال . وأكدت أن الشرف والفضيلة فوق كل شيء . آخر ما سألت عنه زهرة .
وبحرص شديد . سألت عن – أم محمد – وهل مازالوا يلتفون حولها . وتصير
شرايين قلبها أذرعًا تضم الجميع ؟ هل مازالوا يحبونها ويؤمونها دارها عند الشدائد
والأفراح ؟ فوجئت النسوة بأن زهرة تعرف الشيء الكثير عن الحى ، وأهله .

بادرتها إحداهن :

- إذن هذا سبب اختيارك لحينا . سمعت عن ناسه الطيبين .
رفعت زهرة حاجبًا . وبكل الثقة قالت :
- فى كل مكان يوجد أناس طيبون . ليس هذا مقصدى . سمعت أن الحياة هنا أرحب . جئت أبحث عن وضع أفضل .
- قالت أخرى :
- أو ربما لأجل البحر .
أو مات زهرة بكفها :
- بالضبط . هواء بحركم يناسبنى .
- لكنّ الرطوبة عندنا شديدة . تتعب الصدر . وأنت تتركين الباب مشرّعًا
للريح طوال الليل . ألا تحشين من اللصوص أو الكلاب السائبة ؟؟
- ضحكت زهرة باستخفاف :
- لصوص !! كلاب ! أنا لا أخاف . إذا جاء اللص أعرف كيف أتعامل معه . أما الكلاب ! فلها علاج آخر .
- يا زهرة . جئت وحيدة وما تزالين .
- فهمت زهرة صيغة السؤال . ابتسمت :
- تركت زوجى .. وأولادى هناك ربما يأتون .
ارتطم الخوف بقلوب النسوة . إذن . لها زوج بعيد وهى جميلة .

وأزواجهن لهم عيون فتانة وأيضًا لهم طباع النمل الذى يمشى إلى «رائحة
الدم» .

وزهرة ! يالها من امرأة !

أحست بما فى العيون من رعدات ، فتوددت :

– أنا لأحب الخروج . ولا الأسواق . ولا زحام الناس . أفضل أن أبقى هنا .
ولكن !!

صمتت . لاح حزن على وجهها . تعاطفت بعض النسوة معها :

– لو بقيت هكذا ستشجرين بالوحدة . أنت غريبة . وصرت جارة نحن
مستعدات لكل ما تطلبين . والآن من أين ستعيشين؟؟

تناغم الحزن فى صوت زهرة :

– هذا ما أفكر فيه . زوجى يتأخر حتى يرسل المال . لهذا أنا بحاجة للعمل .
تبادلت النساء النظرات وثارَت السؤالات :

– ماذا بإمكانك أن تعملى؟

– وأى عمل ستقوم به امرأه جميلة مثلك؟؟

كان فى السؤالات كثير من الفضول . والقلق . والتشوق لمعرفة الجواب .

قالت زهرة :

– أنا أتقن أعمالاً كثيرة . التطريز . الخياطة . عمل الحلوى وبعض الفطائر التى
لا أظن أن حيككم يعرفها . وأيضًا أتقن كل ما يهمنى ككساء من أعمال الزينة .

« والحفاقة »^(٢) ثم أنا امرأة أتقن لغة جديدة . قد أستطيع تعليمها لمن ترغب .

– ترغبين إذن في العمل بين البيوت ؟

– هذا ما أريد . أحتاج إلى المال كي أعيش . المال الحلال . وشدت على كلمتها الأخيرة لتبذر الأمان في قلوب النساء . وتنهذن جميعاً ماسحات على صدورهن :

« المرأة شريفة .. تريد العمل الحلال »

* * *

عدّلت أم محمد من وضع « ملفعها »^(٣) الأسود الذى تفوح منه رائحة دهن العود . ومسحت على وجهها . قالت :

– انتبهن يا نساء يا طبيبات الحى .. أيتها العيون التى لا ترى إلا الخير . الفتنة تدخل بيوتكن .

* * *

زهرة دخلت كل البيوت . زهرة الجميلة . أصبحت حديث الحى . سموها « هبة الريح » لسرعة حركتها . وإتقانها كل عمل تنجزه . ارتدت نساء الحى أجمل الثياب . وتزينت « المطارح والمساند » بالترتر الملون . تجملت وجوه النساء بأصباغ . وتفنتت زهرة فى تجديد شعورهن الطويلة . صارت كل البيوت تحب زهرة تطلها وتكرمها . فكل النساء راضيات . زهرة ذكية . تحرص على ألا تحتك بأى رجل . لا من الأزواج . ولا من الأبناء . إذا دخل واحد منهم فجأة دون أن يتنحى أو يطلب « درياً » ثور زهرة يحققن وجهها وتسب

بكلمات غير مفهومة . تنتصر النساء لها يؤنبن الذى فعل . لا يُردن أن تغضب
زهرة . وتعاف بيتًا من البيوت . لكن حلم زهرة ظل أن ترى أم محمد .
سألت إحدى النساء :

- ألا تريد أم محمد أن أحيط لها ثوبًا؟؟

قالت المرأة :

- أم محمد حريصة على ثيابها القديمة لا تستبدلها . ولا تفرط فيها .

- ألا أصنع لها مساند؟؟ فطائر؟؟

- مساندها « السدو»^(٤) أغلى عليها من كل شيء وهى لاتحب الفطائر . تصنع
بنفسها « قرص العقيلي» .

ذاب حلم زهرة صارت كل البيوت بيتها . إلا بيت أم محمد . ظل موصدًا .

ولم تثر زهرة أية مشكلة فى أى بيت . صارت محبوبة . كَوْنت الصداقات .
أصبحت الغريبة واحدة من أهل الحى . ونسى الناس الطييون تساؤلاتهم .
نسى الناس بيت أم محمد . تحدّثوا عن زهرة . صارت هذه الزهرة كالبيت لهم .
داخل أوراقتها يستريحون . ومن شذاها يتنفسون ومن بريقتها يستمدون كل
جديد . وحدها أم محمد تمسح كَفًّا بكف . ترى .. وتصمت .. وتردد :

« لاحول ولا قوّة إلا بالله .»

* * *

حين تُطفأ الأنوار . ويغلق الليل عيونه . تشرعُ زهرة الباب . فيأتى هواء
البحر منعشا . تحمل رائحته عطرًا خاصًا تُلّوح زهرة بيديها الجميلتين . وحدها

ساهرة عند الباب .. الناس نيام ..

وعيون أم محمد في الفراش لا تنام .

* * *

ذلك النهار . لقي الناس في بيت زهرة صبية جميلة . سألوها فقالت :

- هي أختي .

رحّبوا بها . غريبة جديدة . هي أخت زهرة المحبوبة . والحى الطيب يحب
الضيوف ؛ ويكرمهم .

بعد أسابيع جاءت غريبة أخرى . استأجرت لها زهرة بيتًا على البحر .

- من هذه يا زهرة؟؟

- هي ابنة عمى . مات عائلها . جاءت تبحث عن عمل .

وحين دخل البيت شاب جميل . يقف الصقر على زنديه قالت زهرة :

- لا تنزعجوا . إنه زوج أختي . يتقن أعمالاً كثيرة ولكن !

واهترت قلوب النساء :

- ماذا يا زهرة؟؟

- يريد بيتًا قريبًا منى . ولا أجد .

لم يدم حزن زهرة أكثر من أسبوع . كان صاحب أحد البيوت يترك بيته
ويؤجره .

كثراً قرب زهرة . يأتون . لا أحد يتساءل كيف يأتون . وأى ريح تحملهم .
الحى غارق في طبيته . وفى الترحاب . اليدُ الآتيةُ «تسد العين» تعمل . تنتج .

وتبدع . لا تكل ولا تندمر . لا تكره أن تُؤمر فتطيع . الكل يشكر زهرة التي
تكرمت على الحى . فيكرمونها .. أى بيت تختاره زهره يفرغونه . للأنساب . ثم
دفعت زهرة مبلغاً كبيراً واشترت البيت . وحذا حذوها كثير من الأقرباء .
امتدت بيوتهم على طول الساحل . ولكل بيت باب يشرع . لأن هواء البحر
الذى يناسب زهرة يناسب كل الأقرباء والقريبات . الذين صاروا من أهل
الحى . من صلب الحى . وأحبهم كل الحى .
وحدها أم محمد . تضرب كفاً بكف . ويرعم الخوف فى صدرها تتنهّد :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد باعوا البيوت » .

استيقظ الحى ذات يوم على صدى النواح . كانت النساء الغريبات
متشحات بالسواد . سيولاً .. تصب فى بيت زهرة . تسأل الحى ما الخبر؟؟

جاء الجواب :

— مات لزهرة عزيز

وفى بيت زهرة ولولت النسوة وضرن على صدورهن وخارج بيتها سكن
الرجال . وبكوا .

عشرة أيام متتالية والحزن الأسود يعرّس على الحى . حزن له لون خاص .
وعطر خاص .

تعطل الحى . وقبعت نساؤه فى البيوت فكّرْنَ أن يذهبن لبيت أم محمد .

استقبلتهن وفى الخاطر عتاب :

— طالت غيبتهن .

- شغلتنا الحياة يا أم محمد .
- بل شغلتنك زهرة . .
- نحن نحبك يا أم محمد . ولا نستغنى عنك . ولا عن مشورتك .
- ما الذى يقلقكم؟
- الحى معطل . الرجال الغرباء على الساحل يبكون ، والنساء فى بيت زهرة يُولولن . لا نعرف معنى لهذا الحزن يا أم محمد .
- لتعرفوا أن لكل حزنه . أحزاننا غير أحزانهم . هذا العزيز الذى مات سيحزنون عليه كل مرة عشرة أيام . ونحن ندفن موتانا . تؤمنهم الله . ونترحم عليهم ونكره الحزن . والسواد .
- كل البيوت سوداء يا أم محمد .
- كانت بيوتكم لكنكم بعتموها صارت الآن لهم لا يحق لكم الاعتراض على ألوانها .
- وتنهدت أم محمد .
- سمعت النساء تنهيتها تشق صدرها . وتفر إليهن . همسات تخرج من أفواه النساء . فيها ندم .. وفيها خوف وفيها تردد فى السؤال :
- ماذا نفعل يا أم محمد؟؟
- ومن قلبها نهت أذرع حنان . شبكت النساء إلى صدرها . قالت ولغتها أغنية تصدح :

— أنتم أبناء حيسى . أهل . وناسى . أعرفكم فكونوا حذرين . اغلقوا البيوت
دون كل غريب . واحضنوا البحر الذى من مائه تشربون .
بكت النساء
بكت أم محمد .

اختلط ملح الدموع . صار حبة لؤلؤ تُذكر بوجه ذلك البحار القديم الذى
صنع السفينة .

* * *

منذ دخلت زهرة الحى . وعيون أم محمد ساهرة قلقة لكنها الليلة غير كل
الليالى . لقد جاءت نساء الحى . وقد بدأت عصافير الخوف تبني أعشاشها في
قلوبهن . وقلوب رجالهن . جئن يفتحن القلب . والجرح . فتسيل الأحزان
وتفتق القلق . أكثر في عيني أم محمد .

هم ناسى .. وأهل حيسى . هم أولادى . يأسفون بعد الخطأ يطلبون
مشورتي .. وآه

صفقت كفاً بكف :

ما باليد حيلة ياعبالى .

حملها الأرق إلى البحر . هجعت على رملة . خلعت ملفعها وانسدلت
ضفائرها الشائبة حبلاً حنوناً يودُّ لو يضم الشاطئ كله إليه .

امتد بصرها الضعيف إلى البعيد . تذكرت زمنها الراحل . والدها الذى كان
يأتى بعد سفر طويل يحمل رائحة البحر ضاحكاً لنصر .. أو عابساً لفشل .

وزوجها الذى تبع أباها وركب البحر . عشقاً ينتقل بالدم . تحس هواه يسرى مع
النسمة داخلها . تنتشق روائح « الغاصة »^(٥) . وتسمع صدى زغاريد النسوة
وفرحة العودة . المراكب البيضاء تلوح أشعتها وترقص . من هنا كانت نجىء
لا من هناك .. والبحر واسع يتلألأ تحت شعاع القمر وعينا أم محمد تعانقانه .
وتنزرعان فيه كأنها . تصل إلى العمق . لونه تحت الضوء الحانى صافياً .. وهى
تتابع موجه تتابعه .. تتابعه .. و .. ماذا هناك ؟
عينها تصطدمان بأشياء تتحرك .

استقامت أم محمد . للمت جدائلها الشائبة وغرست النظرة الضعيفة
صارت نظرة صقر . مراكب تدنو . ولا تصل ، هى تراها تنزف خيالات
متحركة . تندلق فى الماء . يتطاير الرذاذ . أسماك تلك أم حوريات ! أم تراها
شياطين ؟ خفق قلبها . وانهار جسدها الطيب إلى الرمل ثانية . توسدت ذراعها .
قالت :

— لن أتحرك سأرى ما الذى يجرى فى البحر . أى ربح تأتى وأى شىء تنزفه ؟
الخيالات تتحرك هارعة إلى الشاطئ . ثم خطوطاً خطوطاً .. إلى الأبواب
المشرعة . .

قناديل حمراء تتدلى تعابها الريح الخفيفة وحين تدلف الخيالات تطفأ
القناديل . وتغلق الأبواب .

* * *

فى الصباح .. وجد الناس باب بيت ام محمد مشرعاً . انهمروا إليه . هم
يعرفون أن أم محمد لا تشرع بابها إلا إذا كان لديها أمر تود الإفصاح عنه .

أعلنت أم محمد عن كل مآثرته . وأنبلجت العيون خائفة غير مصدقة . لكن
الناس ما اعتادوا منها الكذب . ولا الخداع . هي أمهم الكبيرة . وهي القلب
الأليف الذى إليه يهجعون .

كل الآذان أُشْرِعَتْ للخبر الكبير . حتى آذان زهرة . والأقرباء ..
ثارت .. ثاروا .. صرخت فى الناس :

- أم محمد خرّفت .. مجنونة .. تحلم ..

وصرخت مرة أخرى :

- إنها تتبلى على وعلى ناسى .

صدّ عنها الناس ، حملت جسدها الرائع وثورتها وذهبت إلى بيت أم محمد
تبعها الأقرباء الكثيرون ملأوا الشوارع بالهياج .. وبالصياح .

وقعت عينا زهرة على بيت أم محمد .

هى المرة الأولى !

خرجت أم محمد هادئة . واثقة . مبتسمة . شعاع منير ينبع من كل الوجه
الذى اعتاد الطيبة . وعاش فى سلام . رفعت ذراعها لتوقف السيل . فتدلى كُمُّ
ثوبها المشغول « بالزرى »^(٦) التمت عليه أشعة الشمس . أثار وهجاً نقاطاً ذهبية
شعت فى المكان . وعلى الوجوه الحاقدة كسرت الأشعة العيون . لكنها لم تكسر
اللسان . صرخت زهرة فى وجه العجوز بكلمات فاسقة . فوجيء أهل الحى . كأن
الصرخة لطمت كل الوجوه . « تجمعوا حول أم محمد . حول جدران البيت
الطينى التصقوا بمحونه . وبغضهم وقف سداً .

كانوا قلة كانت زهرة والغرباء أكثر . لكنهم وقفوا . هياؤا الأذرع لتدافع
عن أمهم .. وجدار البيت .

شتمت زهرة . عيرت أم محمد بعجزها . عيرت أهل الحى الذين استكانوا
وتعالوا .. عيرتهم بسواعد الأقرباء التى تعمل .. عيرتهم بكل جديد جاءت به
إليهم . عيرتهم بأنها بأموالها غيرت .. وبدلت فى الحى . وفى البيوت .. لم تأت
أم محمد بحركة .

لم تبك .

لم تلطم خديها .

لم ترد على السباب ... ولا التجريح . كل ما يحدث أمامها .. وما يقال .
كانت تعلم أنه سيحدث . لكنها لم تستطع أن تفتح الناس به .

النساء باهتة وجوههن ، والرجال كاظمين الغيظ ولكن ! حين صرخت
زهرة مهددة :

– سأطردكم من هذا الحى .

اشتعلت الثورة فى النفوس . صرخوا بصوت واحد :

– سنطردك يا زهرة .

هزت ضحككتها المكان .

تطلع الناس إلى وجه أم محمد الباكي بصمت .. تابعوا نظرتها الحزينة .

كانت تعد البيوت الممتدة على الساحل .. وتابعت كل العيون كل
البيوت .. كلها .. ليست لهم ..
وهزّت أم محمد رأسها .

* * *

-
- (١) شيخوه : اسم علم لامرأة . وأصله «شيخه» .
 - (٢) الخفاقة : إزالة شعر الوجه والحاجبين .
 - (٣) ملفعها : غطاء الرأس لكبار السن من النساء ولونه أسود .
 - (٤) السّدو : أعمال اليد البدوية .
 - (٥) الغاصة : الفواصين .
 - (٦) الرّزى : خيوط القصب المذهبة التي تزين ملابس النساء .

وحده الظلُّ يقي

لم يكن « محيسن » أعور . لكنهم في ذلك الحى البعيد عرفوه بهذا النعت منذ تعرضت عينه لذلك الحادث الأليم .

كان صغيرًا . يخلو له أن يُحوس بين الرجال الذين يتحلقون عند باب بيتهم . يتبادلون الأحاديث ، يسمعون شكاوى بعضهم بعضا ويتداولون شئون الحى . وأحيانا يتحررون من هموم الحياة فتعلو أصواتهم بالضحك حين يطلق أحدهم دعاية ما .. أو يعلق آخر على حادث مضحك خلال النهار .

ومحيسن طفل خَدوم .. ودكى . كان يسرع إذا سمع صوت أمه تناديه من خلف باب البيت لتناوله الجمر المتوقد . فيعطيه بدوره لوالده الذى يقوم بتوزيعه على « كدو »^(١) الرجال .

يقال أن محيسن ذات مرة عبث بنحطوم الكدو فانزلت جمرة ، سقطت على جبينه وأخذت سيرها حتى عينه . فاحترق جزء من جفنه . حملوه إلى « أبو فاضل » الذى كور عجينة ذات رائحة غريبة وضغطها على عينه وربطها . وأمرهم ألا يفتحوها وأن يعودوا به بعد أسبوع ليفكها بنفسه .

في الموعد المحدد رفع أبوفاضل الرباط . فبدت عين محيسن « مشبونة »
لا يكاد يفتح جفنها .

صرخت أمه حين رآته وقد تجمهرت أمام باب « أبوفاضل » مجموعة من
الأولاد :

- ياويل .. صار الولد أعور .

وطرقت الكلمة أذنه وعشعشت في فؤاده .

* * *

حين انتقل إلى هذا الحى تصور أن الأولاد فيه لن يفتنوا « لِعَور » عينه .
لكنهم سرعان ما أخذوا ينادونه به . فيحس بالألم والخجل لكنه لم يكن يجرؤ
على معاتبة أمه التى نطقت بالكلمة دون قصد منها ، غير أنه ذات يوم فاضت
نفسه بالحزن فهرع إليها شاكياً ودموعه تتسابق على وجنتيه :

- لن أخرج إلى الشارع بعد اليوم .

صفقت على صدرها :

- لماذا يا محيسن ؟؟

- الأولاد ينادوننى بالأعور . وهذا يؤلبنى .

هاجت . قالت له دون تفكير :

- « أولاد الكلب » اسمع . إذا قال لك أحد منهم هذا فخذ حجراً وأعور له
عينه .

وسمع أبوه هياجها فصرخ :

- تعلمين الولد الحقد . افترضى أنه فعل وأعمى عين أحدهم فما العمل ؟؟

هزّت يدها :

- « بالشيطان » لتعمى عيونهم . أم أنك تريدكم أن يكسروا خاطر الولد؟؟
أهمل الرد والتفت إلى ولده محذراً :

- اسمع يا محيسن . لا تسمع كلام أمك . أنت لست أعور وحتى لو كنت فليس
عيياً أن تكون في الإنسان عاهة المهم أن تجعل الناس ينسون عاهتك . أن تكون
إنساناً جيداً . شجاعاً . عندها يحبونك . ويحترمونك . ولا يُعايرونك بعور
عينك .

سرحت عينا محيسن إلى البعيد . تخطت جدار البيت وأخذت طريقها
لا تصطدم بشيء . وعلى شفته لاحت ابتسامة عذبة . يومها تعلّم اللرس
الأول .

* * *

عندما لمح « جَسُوم » جرادة في قلب الحفرة صرخ :

- الله .. هذه « مكنة »^(٢) . سأنزله وأخذها .
حذّره الأولاد :

- لا تفعل يا جسوم . الحفرة رطبة . البارحة نزل مطر كثير . سخر منهم :
- سأنزله يا جبناء .

وانزلني إلى الحفرة . وما كاد يلقي بنفسه حتى غاص إلى نصفه بالطين فصرخ .
سخر منه الأولاد . لكنهم حين بكى خائفاً تراكضوا يستغيثون وأصواتهم
تسبقهم :

- أين محيسن ؟ وحده سينقذ جسّوم .
صدى الصراخ والنداء طرق أذنيّ محيسن الذي كان بجوار والده في المسجد .
قال في سره :
- الملاعين .. حتى صلاتي لا أستريح فيها . ماذا حدث ؟؟ ركض وغترته
المهلهلة تتطاير معه . وصل ، وإذا عيون الأولاد تستغيث . سبقوه إلى
الحفرة . وهو وراءهم لا يدري ما الأمر . لكنه حين ألقى النظرة داخل
الحفرة . فهم أن الأمر يحتاج لشجاعته حقاً .
صرخ في جسوم الباكي :
- ما الذي أنزلك ؟
تطلع إلى وجوه الأولاد بشكل اتهام . لكنهم تدافعوا :
- قلنا له لا تفعل .
- لم ندفعه إليها .
- أراد أن يأخذ الجرداة .
- تصور نفسه محيسن الشجاع .
أسكتهم محيسن :
- اخرسوا جميعكم .. هيا .
سحب غترته ، أدلاها إلى جسّوم :
- امسك بها جيداً . وسوف نزعبك .. هيا .
أمر الأولاد بأن يتحركوا . لكن أحداً لم يفعل . قالوا :
- نخشى أن يسحبنا هو . نصفه مدفون ، والطين غداً .
بصق على الأرض :

- لعنكم الله يا جبّاء :
- ثم خاطب جسوم :
- سأزعبكّ وحدى . هيا .. تشجع .
- أخذ ساعده الرشيقان يشدان ، وهائه يعلو وحين ارتفع جسوم قال له :
- الآن . ارفع قدمًا واحدة . اسندها إلى جدار الحفرة تعكز عليها وارفع الثانية . وحاول الصعود .
- تشجع جسوم . وخرج من الحفرة . كان الطين يلوث ملبسه . وأقدمه ويديه . اقترب ملهوفًا نحو محسن ليقبله شاكرًا لكن الآخر رده :
- إياك أن تندفع مرة ثانية خلف الأشياء الصغيرة . هل أنت مجنون ؟
- لن أفعل . ولن أنسى معروفك .
- تراكض الصبيان . أصواتهم الهاتفة تتخالط :
- عاش محسن الأيور .. عاش الشجاع .
- مسح محسن على عينه المشبونة وتهد سعيدًا وفي داخله كان السؤال يلح بلهفة :
- ترى : هل سيصل الأمر أمّونة !!

* * *

يوم شبت النار في بيت « صالحة المجنونة » لم يكن أحد في الشارع . محسن وحده كان يمر ضنفة . وقد أرسلته أمه إلى بيت قريب ليحضر لها « مُلمّصًا »^(١٣) . شاهد صالحة المجنونة يتدلّى لسانها الأحمر وقد هبت مذعورة إلى الشارع عارية القدمين مشقوقة الجلباب :

- حريقة .. يا الأجواد .. حريقة .. بقرقي تحت العريش ، ستأكلها النار .

نسى محيسن ما أوصته أمه والتقط طابوقة أخذ يطرق بها أبواب البيوت المغلقة ، فتراكضت نسوة .. وصبية جاءت لهم أوامر أمهاتهم :
 - أسرعوا .. أخبروا الرجال .

محيسن لم ينتظر . دخل البيت . خطواته السريعة تتجه إلى العرش كان حوار البقرة يأتي مذبحًا . النار تلتهم بعض القش والأخشاب المتراكمة في الزاوية ويعلو دخان أسود .

لفت محيسن غترته حول رأسه . دفن وجهه ما عدا عينه السليمة . اندفع إلى مريط البقرة . وفكه بسرعة وشجاعة . ثم سحبها وراءه وخرج بها إلى الشارع . سلمها لصالحة . تحول رعبها إلى فرح . أمسكت بمحيسن . حاولت أن تقبله لكنه سحب نفسه من بين يديها وانفلت إلى بركة الماء في الحوش يزعب منها ويصب على النار .

لكن النار الجائعة امتدت إلى سقف العرش ولسانها الأحمر ظل يفح ولا يفيد الماء القليل . فجأة ... طرقت الأسماع أجراس سيارة الإطفاء . فترك محيسن الدلو وخرج مستريحًا ينظر إلى صالحة تحتضن بقرتها الوحيدة بفرح . بينما سؤال ملهوف يتكرر بداخله : هل ستعلم أمونة بما حدث؟؟؟

* * *

ذاعت في الحى والأحياء الأخرى شجاعة محيسن . تكررت له مواقف كثيرة . اعتمد عليه كثيرون في أعمال تكاسلوا عن القيام بها . وكان لا يتذمر ، بل يشعر بالزهر والفرح لهذه الثقة غير متظر لشكر أو مكافأة من أحد . كل ما كان

بهمه هو أن تصل أخباره إلى أمونة . وحين يداعبه هذا الأمل ينسى عينه المشبونة
ويتطلع إلى الأفق البعيد وكأن شعاعًا من الأمل يلوّح له وحده .

* * *

ذات عصر تخلق الأولاد . ضحكوا .. تحدثوا .. تباروا في الركض على قدم
واحدة . وفي لعب « التيلة » . وكان محيسن يتفوق ، وفي كل مرة يذكرهم :
- الأعرور غلبكم .

فتحمر وجوههم خجلًا ويتسمون :
- يا محيسن . نحن لا نقصد أن نعايرك .
يرد على ابتسامتهم :

- أنا لا أزعل . أعرور .. أعرور . المهم أنني أرى .
ويرون عينه تسرح فيصمتون .. يتطلعون إلى وجهه .. إلى عينه المشبونة التي
تعانق باب بيت أمونة في آخر الشارع . يتركونه سابقًا في حلمه . يتبادلون
نظرات ذات معنى . ثم يلكزه أحدهم في ذراعه :

- تحبها يا محيسن ؟؟

يخفض بصره .

يقول آخر :

- هي ليست جميلة .

يرفع رأسه محتدًا :

- أنفها طويل .

- خلقة الله .. هل تعترضون على الله ؟؟

- يا محيسن . يقولون أنها لا تزال تتبول في فراشها .
يدافع بشدة :
- كذابين . من قال لكم ذلك ؟
- الناس كلها تعرف . يدخلون إلى بيوتهم فيشاهدون فراشها منشوراً تحت
الشمس تفوح منه رائحة عطنة .
- هذا لا يعنى أنها تتبول . الرطوبة تعطن كل شيء . حتى أفواهكم .
- نحن لا ندرى لماذا تحبها يا محيسن . رغم أنها متعالية ومغرورة .
- أحبها لأنها أم الخير . سمعنا أخبارها ونحن في حينا القديم . قالوا أن يوم
ولادتها كان يوماً عجيباً . تفجرت السماء بالطرر ، فاحضرت الأرض ،
وزاد الخير ، وتكاثرت الماشية ، وانتعش الناس بعد سنوات من الجذب
مّرت . وبعد ضيق عانوا منه . فكيف لا أحبها ؟؟
- كثيرون هم الذين يحبونها يا محيسن . وهى لا تميزك . وربما لا تحبك .
يبتسم ابتسامة حزينة :
- لا يهم يا أولاد . المهم أن أحبها أنا . أن أتذكر دائماً أنها مصدر الخير الذى
جاء حيكم والأحياء الأخرى وصدقوني . لو طلبت أمونة حياق فسأمت
لأجلها .
- ضحك الأولاد هازئين :
- لهذه الدرجة تحبها .. إنك مجنون .
هبة واقفاً :
- قولوا ما تشاءون « أمونة » تستاهل الحب .
ومشى .. عيناه ترفرفان نحو البيت . فى قلبه كان ثمة رجاء أن تبقى . حتى وإن
لم يهمها بقاؤه .

تابع الأولاد خياله حتى ابتعد . وتداولوا الحديث :

- هل معقول أنه يجيها كل هذا الحب ؟؟

- يقول إنه امتعد أن يموت لأجلها .

- كتاب .

دافع آخر :

- لأ .. محسن صادق . إنه شجاع .

- إذن ! تمنح صدقه وشجاعته .

* * *

في الليل ، تحلقوا ثانية قالوا له :

- يا محسن .. بعد ذهابك خرجت أمونة . قلنا لها عن حبك واستعدادك

للموت لأجلها و....

خفق قلبه ، تهلل وجهه أكد :

- أي والله أنا مستعد .

- لكنها يا محسن لم تصدق . قالت إن كثيرين يقولون مثل هذا الكلام ولكنهم

لا يفعلون .

متر كضيه :

- هي حرة .

- لكننا يا محسن لم تدعها تشك بكلامك . أكدنا لها أنك صادق .

تهند :

- الحمد لله . صدقت إذن .

- لا يا محسن . لقد اشترطت شرطاً لتصدق .

- قفز من مكانه :
- بالله عليكم .. ما هو شرطها ؟
 - قالت إذا كان يجبني حبًا صادقًا فليأكل الزجاج .
 - ارتخى جسد محيسن . أحس وكأن سكينًا حادًا يطعنه . هذا شرط غريب . هل يعقل أن تكون أمونة وجه الخير قاسية إلى هذا الحد حتى تشتت شرطاً كهذا ؟
 - خرج السؤال من فمه وقد انتفخت جفنه المشبونة :
 - آكل الزجاج ؟؟
 - أحس الأولاد بغصته وذعره :
 - ها .. لن تقبل شرطها بالطبع .
 - لمح شماعة تطل من عيونهم ونظرات تحد تكاد تصفعه منتصرة عليه . فقرر في لحظة شجاعة ألا يتراجع :
 - بل أقبل شرطها .
 - شهق الأولاد :
 - هل أنت جاد فيما تقول ؟؟
 - قال بثقة :
 - كل الجدد .
 - ومتى ستفعل ؟؟
 - متى شتم .. على شرط أن تبلغوا أمونة .
 - و.... وعده الأولاد بذلك .

* * *

دخل البيت واجمًا على غير عادته . انزوى في طرف الغرفة يعاثر أطراف قدميه ، يفتت بعض الطين الذى علق بها . وفى ذهنه تتبارى سؤالات وظنون . وفى قلبه يتوقد حزن كبير طفحت آثاره على وجهه . ولا حظت أمه ذلك . فاقتربت منه بحنان :

- ما بك يا محيسن ؟؟

- لاشىء .

- هل عايرك أحدهم بعينك ؟؟

- لم يعد أحدهم يفعل . إنهم يسموننى الشجاع .

- إذن ما بالك حزينا هكذا ؟؟

تطلع إلى وجهها الحنون . ود لو يقفز إليها ويرتمى فى أحضانها ويعترف لها بأنه يجب سواها ويتعذب . وأن ثمنا للحب مطلوب منه . وأنه سيفعل .

كاد لسانه يسغفه لولا أنه تذكر مدى حبا له . وأنها لو عرفت فستثور وتخرج فى الغد إلى الأولاد تشبعهم ضربًا . أو ... ما يدريه فقد تذهب إلى بيت أمونه وتخبر أهلها فتفضح البنت . وتهب زوبعة فى الحى لا يسكتها إلا الدم . طمان أمه . واستكان فى فراشه ، مرارة فى داخله ترسم جذورها وأوراقها على صفحة وجهه وأمام عينيه تمر صور كثيرة .

بريق الزجاج الذى رضى بأن يأكله ليؤكد حبه يتوهج أمامه فيرتعد .

وجوه الأولاد التى نطقت بالتحدى لشجاعته ، هل يدعها تنصبر عليه ؟؟

وجه أمونه الأسمر الذى تدفقت مع إشراقته كل الخيرات هل حقًا سيفعل ؟؟

قد يكون الموت !!

لا ... لن يفعل ... ليذهب الأولاد إلى الجحيم .
لكن ماردًا استيقظ فجأة يؤذيه ، ووجه أمونة يشرق كشمس الحياة .
- يجب أن أفعل . لو خائنتي الشجاعة مرة فإن ثقة الأولاد بي ستتهار . وستفقد
أمونة أملها بي . كما فقدته بكل من يقولون ، ولا يفعلون .

* * *

حين غابت الشمس اجتمعوا . وما أن لمحوا محسن قادمًا حتى تقافروا من
أماكنهم غير مصدقين . اقترب مزهوا مبتسمًا :

- ها .. هل نبدأ ؟؟
تطلّعوا إلى وجوه بعضهم ، عجب يفوح من النظرات التي تركزت على صرة
يحملها محسن .
جلسوا .

ترجع محسن بينهم . حلّ الصرة .
- ما هذا ؟؟

في صوت واحد نبع السؤال .
أشار بيده إلى الأشياء :

- كما ترون .. تمر ، قطعة زجاج . و.. هاون .
لم ينتظر سؤالات أخرى . أخذ قطعة الزجاج وأسقطها في الهاون الصغير .
وبدأ يدقها حتى نعمت . وضع بين أصبعيه قليلا من المسحوق ، عرضه
عليهم :

- ما رأيكم هل يكفي هذا ؟؟

لم يردوا عليه ، كانوا مصعوقين في انتظار ما سيفعل ، ألقى على وجوههم نظرة تحد . ثم أخذ يفتح التمر ، يسحب منه النواة ويلقيها . وحين انتهى بدأ يعجن التمر بالزجاج . يصنع كرات صغيرة حتى اكتملت لديه سبع كرات
تطلع إليهم :

- هل تأكدتم الآن أن الزجاج داخل التمر؟؟

أومأوا برؤوسهم . قال صبي :

- هل ستأكلها حقاً؟؟

قال بشجاعة اعتادها :

- طبعاً .

صاح آخر :

- لا يا محسن .. لا تضر نفسك .

رفض خوفهم :

- الزجاج صار ناعماً .. لن يضرني .

اعترض آخر :

- لكنه زجاج . سيمزق مصاريتك وما يفيد أن

قاطعه محسن :

- مها يكن . ما دامت أموتة قد اشتربت فسأفعل . عندما تأكد للأولاد

إصراره الشليد أصابهم الطمع ، ارتعشت قلوبهم . لقد أرادوها مزحة صغيرة

لكنه صدقها . وسيجازف بحياته . خافوا عليه ، الشجاع الذي كثرت أفعاله

قد يموت فعلاً .

ابتعلوا عته . أخذوا يتشاورون . ثم ركضوا نحوه . شكّلوا دائرة حنونة :

- يا محيسن . لا تفعل .
حاصروه . شدوا على جسده . حاولو أن يأخذوا كرات التمر المشحونة بالموت . لكنه بشجاعة وقوة تخلص منهم وأصواتهم تعلقو :
- يا محيسن .. لقد سخرنا منك . أمونة ما قالت أى شىء ، نحن اخترعنا الكذبة لنختبر مدى حبك لها .
لم يصدق :
- كذابين . أمونة اشترطت . لكنكم الآن خائفون .
- يا محيسن ، لا تضح بنفسك . نحن نريدك بيننا . لقد علمتنا ألا نندفع وراء الأشياء الصغيرة .
فبرقت في عينه أشعة حادة :
- ولكن الحب ليس شيئاً صغيراً . وبالذات حب أمونة أم الخير .
حاولوا أن يقنعوه :
- إنها لا تعلم بحبك .
رفع رأسه عاليًا . فتح عينه المشبونة . قال بثقة :
- ولكنى أحبها . وهذا يكفي .. هيا .. عدّوا لى من واحد إلى سبعة . رفضوا ..
صمتوا .. ولم يحرك الصمت إلا صوت جرش الموت تحت أسنانه .
مات الأعور .
- وحين تخلق الأولاد حوله كانت سحابات صفراء ترتسم على وجوههم .
وهم يلقون عليه نظرتهم الأخيرة .
- لاحظوا أن عينه المشبونة كانت شبه مفتوحة . ومنها يطل ظل ابتسامه .

استمر بعد ذلك يلازمهم كلما مروا أمام بيت أمونة . ولم يجرؤ أحد منذ ذلك
اليوم أن يعلن حبه لها .

* * *

إشارات :

١ - كدو : الأجيلة .

٢ - مكنة : أنثى الجراد . أما الذكر فيسمونه - عصفور- .

٣- ملمص : أداة معقوفة تستخدم لإخراج الدلو من البئر .

رأسان .. وجسد

هو ذا النور يأتي معربداً يخرق العين كسهم أزرق ما تكاد تبتلعه حتى يرتد
من حيث جاء كمجنون تطارده عاصفة من الأيدي .. يعود مرتطمًا بالجدار
فيتعاقب والضوء الأحمر .. يفرشان على السقف كطرحه عروس .

أميل إليه .. أهمس :

- هل سنبقى طويلاً ؟؟

يشد على يدي :

- استمتعي بوقتك .. الليل طويل .

- أكاد أختنق

- سيبدأ الآن استعراض الضوء .

* * *

تتحول الألوان مستطيلات متداخلة .. تتفرع منها مربعات .. تكبر ..
تكبر .. وحين تمتد نحو الجدران المغلفة بأرقى أنواع الورق .. تتحول إلى دوائر

وتعود ثانية إلى السقف .. ثم تنزلق إلى الأرض اللامعة بشكل حبات .. من
الزُمرّد .. تدوسها أقدام الراقصين فتتفضض ثانية ترفض الذل وتعلو إلى السقف ..
تصير أنياب ثعابين تواصل زحفها على كل الأطراف . تعلق ألوان الوجوه وتضفي
على أزياء النساء بريقًا يغيّر ألوانها فتصير أزهى وأجمل .. أما الشفاه المصبوغة
فتكشف كل شفة منها عن مطلب شهوانى .

أتملّل .. أعيد الهمس :

– شفتاى جافتان .

– بلليها بالماء .

– الماء بارد .. والجو خائق .

مال محتضناً كتفى :

– يا حبيبتى .. استنشقى ليدخل الهواء إلى صدرك .

* * *

صدرى محروس بشال من الحرير ..

وتلك الصدور التى أمامى شبقها ينفر .. وآهاتها تشق الثياب .

– لو كنا فى مكان آخر ..

– هى ليلة وتمضى .. لا تفسدى على نفسك المتعة .

متعة !!؟

ما المتعة فى أن أراقب هذه الألوان الصارخة المستغيثة التى تهاجم العين

لتخطف البصر؟؟

ما المتعة في أن أراقب هذه الصدور العارية المأسورة بال عقود وبالسلاسل؟؟

من أين جئن بهذه المصاغات؟؟

كيف تتحمل أعناقهن هذا الأسر؟؟

ولماذا يتادين في استعراض كل ما تحفل به خزائهن؟

كأننى داخل زنزانة حديدية .. يهطل أنفى عرقاً .. نفوح من الراقصين روائح
مرشوشة بإسراف تحت الآباط وخلف شحمة كل أذن .. وما بين الساقين مخلوطة
بروائح الجسد الذى لا يستحم إلا في مناسبات كهذه .

تبتلع رثاى الروائح .. وعصير الدخان المتطاير .. تتغذيان بالعرق .. وفوح
الكؤوس المنوعة .. وبوح الكلمات الملجمة الراغبة في الانفصالات .. لكنها تحرس
داخل حلوق أصحابها .. فتفوح لغة أخرى ..

أنامل تتشابك بعرقها ... عرق عَزَّ مفاجئ .. وخطود تتلاصق ألوانها ..
وعيون تتناجى مناجاة محروم .. الموسيقى هنا تصادر كل صوت .. فيصير لكل
شئ عشقه الخاص .. حتى سيقان النساء الملمعة التى تبلى برعشات تسرى حتى
لتكاد تصل بهن إلى قمة الشهوة .

أحرك ساقى الباردة .. ألامس ساقه القوية :

- هل نتحرك؟

- لا يجوز .

قالت عيناه بعتاب واضح أخرس عندى كل رجاء .

* * *

لا رجاء ...

ولا أمل في المحاولة ...

استسلمت ..

أخذت أتابع المشاهد أمامي .. الخدم يجمون حول الطاولات كالدابير ..
تحط أكفهم فوق الصحون تهيل أشكالاً من المقبلات .. ترفع كؤوساً .. تملأ
كؤوساً .. تمسح أطراف صواني الخضار الطازجة .. لم يكن هذا موسم بعضها
لكنها جاءت . فكم دفعوا ثمنًا لها ؟؟ ومن أين جاء الثمن ؟ كل شيء متوفر هنا ..
حتى « لبن العصفور » الذي تعلم به صبيات اليوم كمهر يقدم لأب جشع يهوى
صفقات البيع .

الضوء يداعب المكان بشراسة يغزو كل بقعة بتحد وقح ... والصدور
والهة لحمها بارز كبضاعة خاسرة تبحث عن مشتر جائع ... الجرسون
يقرب ...

يدس فيه ذا الشفة الغليظة داخل أذني :

... الطلب سيدتي ... سكالوب ...؟ ستيك ...؟ تقزز جسدي

إحداهن تقترب من طرف البيست .. تدور بجنون وهي تراقص رجلها كبقرة
« صارف » فيبدو فخذها المشحان .

الجرسون يكرر سؤاله مصطنعاً الأدب .. فأنتبه إلى أن فه لا يزال يحاصر
أذني .

- هيه ... لحم ماذا ؟ بقر؟ ضأن .. أو أرانب؟؟ سألته .. فضحك ببلاهة ..
تعود أن يفهم رواد هذا المكان الرفيع ماهو الأسكالوب ! والفيليه ..
و.. الستيك .. وأنا بلهاء إذ أوجه له هذا السؤال .. لكنه يرد وكأنه يمنحني
فرصة معرفة شيء جديد .
- ستيك عجل ..
- هززت رأسي :
- طيب ... ستيك .. لكن سوّه جيّدًا .

* * *

بانتظار اللحم

لحم شفتى بين أسناني ..

تري ؟ أى لحم سيأتى به؟؟

لقد تاجر بعضهم بلحوم الحمير .. والقطط الضالة والكلاب السائبة .. وفي
هذه الدنيا هناك من يلجئون بعضهم بعضاً .. وقد يعجبهم هذا النوع من
اللحوم .. من يدري مالذى سيدخل معدتى هذه الليلة؟؟؟

* * *

الليل أحسه طويلاً شاقاً .. وجسدى مستسلم رخو يتراقص عليه الضوء
العنيف ، من هنا يأتي كأنه سيف بيتر الذراع فأهتر .. من هنا يضغط على
الصدر ... فأتصور أخطبوطاً عشق صدرى فجأة .. وجاء يصادره لنفسه وهاهو

ذا ... بنفسجياً كلون دم معتق يأتي من الأعلى .. خطأً رفيعاً حاداً ينصب على
رأسى فيشقه ... فينشطر كرجيف ساخن .

* * *

صار لى رأسان ... يستندان على رقبتى الصلبة الثابتة على جسدى ...
ينفصلان شيئاً .. فشيئاً .. يتابع الأول بنظراته الضوء البهلوان ... يتسلى
بالنظر إلى الجماعة ، يرضى بمحصار الواجبات الاجتماعية . هذا السلك الشائك
الذى لو فررت منه لعزقت أواصر الصداقة . بينا رأسى الثانى يطوف بأحلام
الهروب .

في هذا الكهف ... تموت الحياة ...

سنايل الشمس لاتدخل .. لا تطرد جرائم البذخ والعهر السارية ...
فيستشرى المرض فى الصدور ، فى الضمائر .. فى الأجساد .. فتتشمع اللذات
وتنتصر الشهوات .. وتقرر النساء الماريات ألا وقت لتربية الأطفال .

تتوتر أعصاب رأسى .. يميل على الرجل الذى يغرق فى يقظة السبات :

- هل سبق طويلاً؟؟

- نحن مدعوّان ولا يجب أن نفصل عن الجماعة .

* * *

رأسى المفصول يتمرد .. يبنى انفصلاً عن توأمه .. يبدو الاشتزاز من
لأشكال الضوئية المرعبة رغم روعة تكويناتها واضحاً على قسماته يؤكد لنفسه :

« كل هذا لا يريح . الحياة في الخارج رعشة يومية لذيدة فلم الانتظار ؟؟ »
تلفت رأسى .. يخشى أن يلمح أحد الفكرة في داخله .. لكن عيون
الجميع وعقولهم ساجحة في أجواء المكان .. هائمة بروائح الممتزجة . ينتهز رأسى
الفرصة .. ينفك عن الآخر .. ينسل من على رقبتي إلى الأرض .

* * *

رأسى يتتبع لرأسى الهارب ... يتابعه وهو يسير متعتراً بين الطاولات المزكومة
باللذة .

رأسى يشفق على رأسى .. يخشى أن يفقد السيطرة على نفسه فيتعتز ..
وتدوسه أقدام الراقصين .. أو أحذية الرواد الذين مازالوا يتهافون على المكان .
أحذية الخدم السريعة ترحم الرأس .. توسع له الطريق . بعضهم يداعبه ..
بعضهم يتشم له مودعاً غابطاً العين التي سترى ضوء الفجر .. أحدهم يدس في
ثغر الرأس قطعة لحم .. لكن الفم يلفظها .. يكمل سيره ورأسى الأول قلق يتابع
الخطوات .. يخشى أن يقع توأمه بين أنياب الرجال .. أو فتنة النساء أو تسلط
عليه جنيات الليل .. أو تلمسه أطراف زهرة فتغريه بعطرها فيفضل طريقه ..
لكنه سار واثقاً .. مرححاً جباراً يحمل فرحة .. يطير بحرية نحو الباب المخملي ..
يدفعه .. و يهرب .

* * *

هرب رأسى ...

يحسده رأسى الآخر الذى يئن تحت سيطرة الضوء المجنون .. يأكلنى الكرسى

المخملى .. كأن آلاف الديدان قد وُلدت فيه .. تبتقي في رأسي فكرة ... تلتحم
كالتجاع البرق في ليلة شتاء مفاجئ ..

أتلقت .. أحشيتي أن يثير البرق شهوة الاستفسارات فيخمد التمرد اللذي
ولد .. تمرّد يدعوني أن أطلق هذا الجسد اللدنون إلى ساحة رحية ... إلى حيث
كركرة العصافير العاشقة .. وزغاريد النهار اللذي يُولد الآن ..

أرفع كفيّ إلى عنتي .. أمحسه بجلد .. ثم أرفعها إلى قمة الرأس .. أهزما ...
أزلق إلى الطرفين .. أحرك أتأكد أن فتحة العنق توسعت قليلاً بعد أن انفصل
الرأس .

أفرح .. أمد أصابعي الرفيعة .. أدهسها في فتحة العنق أوسع ... أوسع ...
أوسع .

أززل الرأس ... يزداد الاتساع .. تصير فتحة عنتي مهبلًا طرقيًا في لحظة
ولادة يتوسع كلما مارست أصابعي عملية طلق صناعي له .. أرخي .. وأشد ..
أرخي وأشد . لم يبق الكثير .. هاهي طالقة أخيرة .

ويولد الرأس كطفل يتم .

أمسك به بكفي .. لا أثر لحنوش .. ولا قطرات دم .. ولا بقايا مخاط ..
أنظر إليه بإشفاق .. ازرعه في كف واحدة .. كطفل أبله .. بالكيف الأخرى
أوسع مكانًا على الطاولة المليئة بعشرات الأصناف المتخمة باللحون ... أضعه
في المكان .. أداعب شفته بركة .. أمسح على شعره .. وأودعه ..
انفلت جسديًا بلا رأس .. لاحقة برأسي الطارب إلى الحياة .

هى تى الحياة يصلح فجرها .. بدأ الليل يتجشأ ظلمته .. بدت المدينة
كعروس حجلى تحت ضفائر الفجر المتناثرة .. تفوح رائحتها عذرية كأن الليل لم
يتحركها بعد . تفتح يثائر الصباح شيئاً .. فشيئاً .. كأوراق وردة .. تمطى بين
ذراعى عاشقها .. وتهب نسيامتها الطرية هبواً رقيقاً يلفح الوجه كقبلة أم .

* * *

أركض ...

تركض الشوارع بأعمدة النور المنحنية المطفأة ..
وتركض القراشات ... وأوراق الأرصفة ..

أهتف ...

يهتف ضوء الصباح .. مولودٌ يومىٌ يسمع العالم صوته ويفرح ...
أنادى ..

تنادى أصوات الياعة التشطين الطيبين ..

أسعل ..

ينهق حمارٌ دؤوب ..

أتلقت ..

تلقت أعتاق الشجر المحملة بخيرها .

أصيح ...

تصرخ الحياة كلها من حولي .. مبكرة .. طازجة ... شهية الرائحة كرجوة
حليب درّها الضرعُ للتوّ !!

أمضى غارقة نحو قلب المدينة .. هي ذى المساكن المتراصة تلفظ أجساد
أصحابها إلى الشوارع المبللة بندى الصباح .. وبول المواشي .. يتوزعون في
الأزقة الضيقة .. أجساد طموحة تعارك الحياة ... مستوية زاخرة بالحرارة ..
عرقها مالح رغم طراوة الصباح .. عروقتها ناتئة تستغيث بدمائها .

هي ذى الرغبة في الحياة .. وفي معاركتها .. مفروشة في لحومهم السمراء
التي صقلتها الشمس .. تشققات .. محفورة في الأكف الخشنة .. وفي الجبابة التي
تعلو فوق عيون تدمج فيها شهوة البقاء ... والعتاء .. رغم التعب ..
يتحركون .. لا يستريحون .. لقمة النهار التي تأتي بالآه .. وبالرجاء .

أواصل السير....

أندس في الأزقة اندساس الخيط في ثقب الإبرة . أجساد تتوزع تحت
جدران الأبنية العالية .. وعند أعتاب الجوامع المتناثرة مآذنها نحو السحاب ..
وفوق الأرصفة . تحمل عاهاتها ، وبؤسها ، وزفرات الجوع ، والعري . وتحلم
بلقمة .. وملابس لعيد يسمعون أنه يأتي .

أتابع أقدامًا عارية لأطفال تشتهى أعينهم الغفوة في هذا الفجر المتنفس .
يتحلقون حول بائع فطورهم اليومي متسابقين إلى الرزق .. مهرولين بعد ذلك
إلى الجحور الضيقة التي يتزوج فيها أهاليهم كالأرانب .. يجوعون .. ينامون ..
يستفيقون على أمل أن يندس في الحجر المنسي رغيف خبز تتقاسمه العائلة بالعدل
وتصوم بعده شهرًا .

تدخل إلى جسدى روائح المدينة الحنون .. رغم بؤسها تنغرز في مساماني ..
تدخلها .. تذوب في دمايى .. فأشبع .. أحس للشبع طعمًا لذيذًا .. أحس
امتلاءً ينسبني رأسى الذى تركته هناك على الطاولة الزاخرة بأشهى الأطباق . وهو
يتابع الضوء المتلاعب برشاقة مرعبة .. وينصت إلى الموسيقى الجنونة التى يخرس
دونها أى صوت . هل ترى رأسى هناك يتذكر جسدى المنفصل عنه ؟؟ هل
يتذكر توأمه الذى قرّ بجلده من ذلك الكهف الصاحب ومن حياة ميتة رغم
توهجها .. وصخبها ؟؟ أم تراه فقط ينتظر طبق « الستيك » الذى طلبت من
الجرسون أن ينضجه جيدًا ؟

هل تراه الآن فى الصحن تفوح رائحة شوائه ونضجه ؟؟ هل هو شهى
الرائحة كأجساد هؤلاء الكادحين ؟ تستوى الروائح داخل صدرى .. رائحة مدينة
واحدة شقها السيف نصفين كما شق رأسى .. فصارت مدينتين .. مدينة تفقد
الوعى بصخبها الجنون .. ومدينة تعيد الوعى للصخب اليومى من أجل
اللحمة .. من أجل أن تبقى الرؤوس صلبة فوق الأعناق .

* * *

أتحسس عنقى ..

أتذكر رأسى الذى هرب .. أين هو الآن ؟؟ هل ترى عيناه ما أرى فتمثلتان
دهشة .. وبهجة وتسييحًا ؟؟

هل تتحرك فى عروقه نشوة الاكتشاف فيمارس عشقه للأرض الرطبة ..
والأجساد العامرة بنشاطها تعانق غصون الحياة الطرية .. تتعلق بأذيال أمل لا
تطفأ شموعه رغم هبات اليأس الحارقة ؟؟

أشهى عناق رأسي .. تيار الشوق يهزني فأسرع أصرب الهواء اللذي بدأ
يتسرب إليه دفء النهار . أبصمُ خطواتي على الأرصفة .. أزجها في اللدكاكين
وداخل الأبواب للمشرعة .. أبحث .. أصرخ :

- يا رأسي ... أين أنت ؟؟

أكرر الصراخ .. ثم الهمس .. ثم الصراخ . ثم ..

يأتي صوته دافئًا :

- أنا هنا ..

وأراه ... بين أحضان الأرض الرطبة ترح السعادة على وجهه .. وتتحدر
ابتسامات .. تتوهج شبابتك عينيه المتوحتين على عرس الحياة الدائم .

أدنو منه يتسم ...

أمد كفين مشتاقين .. فيستسلم لظراوتها .. أمسح عليه بجان .. فيتذكر أن
له قاعدة تنتظر أن يجلس فوقها .. ويستقر .. أوسع فتحة عتقي .. أحمله ..
أدسه في الفتحة .. يفرح .. أفرح .. يضحك .. أضحك أحسه يلتئم بالجسد
بحرارة كحرارة النظرة الأولى بين الأم .. والوليد المنتظر .

يسأل بصوت عذب :

- إلى أين ؟؟

- سنعود .

- يحتاج صوته :

- إلى ذلك الكهف الطاهر!

أطيب عليه مطمئنة :

- بل إلى توأمك المقصود المنتظر هناك .

* * *

أعدو .. ورائحة المدينة المرهقة معي .. أحملها أريدها أن تبقى .. أحشى أن
تسليخ عن لحمي وجلدي متصورة أنني سأرفضها .. أو سأحجل منها حين أصل
إلى ذلك المكان المعبق بأرقى أنواع العطور . أحضن أطرافي .. أنجبي الرائحة في
جلدي .. أنتشقتها لتبقى داخل صدرى .. تفوح فيه .. وتشعر بالأمان .

* * *

لم يشعر يدخولي أحد .. كأنني ماغادرت ورأسي إلى مكان ما كأنني
لا أحمل رائحة تشق يعرقها أتوف الجدران .. وخلايا اللحم المشوى .. كل شيء
كما هو ... الطااولات القروشة بالمالأ كولات التي لو كاتت هناك في تلك الأزقة لما
بقيت لحظة واحدة . أدنو من الطاولة التي يجلس عليها رأسي ... كان غاضباً .
ما أن جلست حتى عاتب توأمه :

- لقد تأخرت ..

- كاتت رحلة للتبذة .

- أنا جعت ..

- وأنا لست جائعاً؟؟

.. هل أكلت في الخارج؟؟

- لا يوجد لحم هناك ...

- لكن اللحم هنا كثير ..

- سلخُ الأجساد التي تكدح تحت الشمس .

الجرسون يقترب بأدبه المصطنع . يضع طبق « الستيك » المشوى أمامى ..
أسمر كأجساد الرجال الحالمين بطعمه .. أمسك بالشوكة .. والسكين ... أضعها
فوق قطعة اللحم .. أهْمُ بذبحها .. أدوس عليها .. أصيبُ أحدَ عروقها .. يَنْفَرُ
الدمُ .. أَحْمَرُ .. أتقزُّ .. ترتعش يداى .. ترتعش كلى ... ثور معدنى ..
أحس بأننى أمام لحم آدمى

* * *

المحتويات

٥	فتحية تختار موتها
٢١	ويبقى الصوت حيا
٤١	ينفصل الوطن ... تنفصل الطريق
٥١	على سفر
٥٩	الكيسة
٧١	الشمس وضحاها
٨٥	المدينة .. الحلم
١٠١	لا يصلح للحب
١١٣	دقات المطر
١٢٧	الصرخة في فم الثعبان
١٣٥	زهرة تدخل الحى
١٥١	وحده الظل يبقى
١٦٧	رأسان .. وجسد

رقم الإيداع ٥٢٩٣ / ٨٥ التقييم الدولي ٦ - ١٤٥ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

الفاخرة ١١ شارع حواديجو - هاتف ٧٧٤٥٧٨ - ٧٧٤٨٤٤ - برابا شروق - لايفكس BHROK UN 82001
شعرت اصرت ٨ ٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٢ - برابا الشروق - لايفكس BHROK 20175 LE

